

حکایت حارثہ

نخستین محفوظ

مطبوعات مكتبة النهضة

حكايات حارتنا

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدق - الفيالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الحكاية رقم « ١ »

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبور والتكية . ومثل جميع الأطفال
أرنبو إلى أشجار التوت بمديقة التكية . أوراقها الخضر هى يناعى الخصرة
الوحيدة فى حارتنا . وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة . وها
هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدى بها الحديقة ، بوابتها مغلقة عابسة ، دائما
مغلقة ، والنوافذ مغلقة فالبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة ،
تمتد أيدينا إلى سوره كما تمتد إلى القمر .
وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسله وعباءة فضفاضة وطاقية
مزر كشة فتهتف كلنا .

— يا درويش .. إن شا الله تعيش .

ولكنه يمشى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء ، ثم
لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى .

— من هؤلاء الرجال يا أبى ؟

— إنهم رجال الله ..

ثم بنبرة ذات معنى :

— ملعون من يكدر صفوهم !

ولكن قلبى مولع بالتوت وحده .

وينهكنى اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثم أغفو .
أستيقظ فأجدنى وحيدا فى الساحة ، حتى الشمس توارت وراء السور
العتيق ، ونسائم الريح تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل . على أن أمرق من القبول إلى
الحارة قبل أن يدلم الظلام . وأنهض متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورنى
بأننى غير وحيد ، وأننى أهم فى مجال جاذبية لطيف ، وأن ثمة نظرة رحيمة
تستقر على قلبى ، فأنظر ناحية التكية . هناك تحت شجرة التوت الوسيطة
يقف رجل . درويش ولكنه ليس كالدرويش الذين رأيت من قبل .
طاعن فى الكبر ، مديد فى الطول ، وجهه بحيرة من نور مشع . عباءته
خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن
شدة حملقتى فيه أتمل بنوره فيملاً منظره الكون . وخاطر طيب يقول لى
إنه صاحب المكان وولى الأمر ، وأنه ودود بخلاف الآخرين . أقترب من
السور ثم أقول بابتهاال :

— إنى أحب التوت ..

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعنى ، أكرر بصوت أعمق :
— إنى أحب التوت ..

ينخيل إلى أنه يشملنى بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

— « بلبلى خون دلى خورد و كللى حاصل كرد » .

وينخيل إلى أنه رمى إلى بشمرة فأنحنى نحو الأرض لألتقطها فلا أعثر على
شئ ثم أستقيم فأجد مكانه خاليا ، والظلمة تغشى الباب الداخلى .

وأقص القصة على أبى فيرمقنى بارتياح فأؤكدها له فيقول :

— تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيوخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته !

فأحلف له على صدق بكل مقدس فيسألنى :

— ترى ما معنى الرطانة التى حفظتها ؟

— سمعتها مرارا ضمن تراويل التكية ..

فيصمت ألى مليا ثم يقول :

— لا تخبر بذلك أحدا .

ويسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتحلف وحدى بعد ذهاب الصبيان . أنتظر ظهور

الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتى الرفيع :

— « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

فلا يجيب . أعالى بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتى .

وأذكر الحادثة فى زمن متأخر ، أنساءل عن حقيقتها ، هل رأيت

الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهايا للأهمية ثم صدقت نفسى ؟ ، هل

توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال فى بيتنا عن الشيخ

الكبير ؟ . هكذا أفكر ، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى ؟ . ولماذا

يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته ؟ . هكذا خلقت أسطورة وهكذا

بددتها . غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت فى أعماق نفسى

كذكرى مفعمة بالعلوبة . كما أننى ما زلت مولعا بالتوت .

الحكاية رقم (٢)

شمس الضحى تسطع والسما صافية . من موقفى فوق السطح أرى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور السطح مربوط به حبل الغسيل . أرمى السطح الملاصق فيتحلب ريقى . تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشيء من الحلوى . وأعبر السور . أمضى نحو المنور ، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما . تجلس على كنية تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما .. منظر غريب وباهر ، وهى فى ضخامة بقرة . وأهتف :

— يا تيزة !

ترعب ، تنظر إلى فوق ، لا تلبث أن تضحك ، تصيح لى :

— يا عكروت .. أنزل ..

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

— أدخل ؟

وتسمح فأدخل ، أقرب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسممة وتقول :

— وقعت يا بطل ..

وتستلقى على بطنها وتقول :

— ذلك لى ظهري .

أشمر عن ساعدى ، أدلك ظهرها بحماس ورضا ، أشم رائحة جسد
بشرى معبق بالصابون والقرنفل ، وهى تتمتع :

— تسلم يداك !

ثم بمزاح :

— أنت عفريت من الجنة !

ثم وهى تضحك :

— الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسى فى العمل فتقول :

— ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر أمك ؟

— كلا .

فتضحك وتقول :

— وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال ، حقيقة أنك شيطان-، هل

تعلمت التدليك فى الكتاب ؟ ماذا تدرس فى الكتاب ؟

— الفاتحة وألف باء .

— ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم ؟

— بامية .

— عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح ، تثال الملح من فيها بلا حساب ،

وكذلك النكاب المكشوفة ، فتحاول أُمى أن تبعدنى ولكنى أرجع ،

وتشير لها إشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتهادى هى فى الدعابة .

وتسألها أُمى معاتبة :

— متى تصلين وتصومين ؟

فتجيب :

— فى آخر شهر قبل يوم القيامة .

فى الخمسين ، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء . وعمل
ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس . وهى تدمن
التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية ، أرملة ، فى كل بيت لها
صديقة حميمة ، لم تشتبك فى مشاجرة واحدة فى حارتنا الحافلة
بالمشاحنات .

* * *

وتتند أُمى ذات يوم وتقول :

— مسكينة يا أم زكى ، ربنا يردك ويشفيك ..

تنوعك صحتها ، وتأخذ فى التدهور ، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة
ثقت ، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية ، وتخب فى شفائها
كافة الوصفات . وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من
الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال « الأسياد » وألا شفاء لها إلا
بالزار . ويحىء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء ، ويعبق
البخور ، وتتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن الغموض
والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد جديد ، تجلس على
عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى
منه عناقيد الخرز مختلف الألوان ، منقوعة القدمين فى وعاء من ماء الورد
تستقر فى قعره حبات من البن الأخضر . وتدق الدفوف وتهزج الحناجر

النحاسية بالأناشيد المرعشة ، فنفوح في الجوا أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت صاحبتة المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعة بالحركات ، وتتوهج بالتأوهات ، وتذوب الأجساد في الأرواح . وها هي أم زكى تتلوى بعنف كأنما ردت إلى جنون الشباب ، وعن فيها المزين بالأسنان المذهبة يصدر صفير حاد ، ثم تركض دائرة حول العرش ، ويتحول ركضها إلى اندفاع رهيب ، وتدور حتى تترنخ من الإعياء وتهاوى مغشيا عليها ..

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلا :
— ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .

* * *

وها هي الأيام تمر .
وصحة صديقتى لا تتحسن .
لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل في جزع :
— ماذا جرى لى ؟ .. ماذا جرى لى يارب ١٩ . أين أنت يا أم زكى ١٩ ؟
ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العيني . وتودع عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها . وتلمحنى واقفا فتلوح لى بيدها وتقول :

— ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار .
فأرفع عيني إلى السماء وأتمتم : « يارب .. رجع لنا تيزة أم زكى » .
ولكن كأن الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق .

الحكاية رقم « ٣ »

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .
أنى ينظر إلى باهتام . يتسم إلى برقة وهو يحتسى قهوته . وهو يهم
بالذهاب يداعب شعري ويربت على منكبي بخنان ثم يمضى .
وأمى تقوم بعملها اليومى بعصبية ، تغضى عن عبثى وتقول لى
مشجعة :

— اللعب يا حبيبى ..

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .
وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمامى جارتنا الشامية
أم برهوم . أعدو إلى المطبخ لأخبر أمى ولكنى لم أجد لها . وأناذى عليها بلا
جدوى فتقول لى أم برهوم :

— نيتك ذهبت فى مشوار ، وأنا معك حتى ترجع ..

فأقول محتجا :

— ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة .

— وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك ؟

وأصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومئ لى بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة وإذا بعم
حسن الحلاق ومساعدته يدخلان باسمين فقلت لهما من فورى :

— ألى خرج .

فقال العجوز :

— نحن ضيوف !، سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبه وهو ييسمل ثم قال وهو يخرج من حقيته أدوات
بيضاء لامعة :

— يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى !

ويجئء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا :

— هكذا أفضل .

وإذا ييديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنها
ألصقت بالغراء والمسامير ، فصرخت غاضبا :

— ابعد عنى .

واستغثت بأمرهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب ..

ولم أفهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها أنا أعانى هجمة
وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الألم الحاد القاسى
ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى إلى أطراف
جسمى وصميم قلبى . وها هو صراخى يدك الجدران ويحتاج أرجاء حارتنا .

* * *

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص فى الماء بين اليقظة والنوم .
تمرى أجيال من الألوان والخواف والأحزان .

وعند نقطة من الزمن تلوح لى أسمى بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

وقبل أن أفتح فمى محتجا أو متهما تضع بين يدي هدايا الشيكولاته
والملبس .
وأعيش أياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة ..
ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات .
وأنقل من مكان إلى مكان مفرجا بين فخذى مبعدا بيدي الجلاب عن
جسدى .

الحكاية رقم (٤)

وأنا ماض نحو القبو يفتح باب بيت القيروانى تاجر الدقيق وتبرز منه
بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . ييضوات ملونات
الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحه نقيه . الدوكار ينتظرن
فأتسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولى فتضحك وسطاهن وهى
أشدهن امتلاء وأغلظهن شفة وتقول :

— ما له يسد الطريق !

لا أتحرك فتخاطبنى مداعة :

— أفق يا أنت !

وأقول متأثرا بدفقة حياة مبهمه :

— بلبلى خون دلى خوررد وكلى حاصل كرد .

فيغرقن فى الضحك وتقول الكبرى :

— إنه درويش .

فتقول الوسطى :

— إنه مجنون !

وألقى بنفسى فى ظلمة القبو فأمضى مهرولاً حتى أخرج إلى نور
الساحة أمام التكية . فى رأسى حماس وفى قلبى نذير نشوة البراعم قبل أن
تتفتح .

صورهن الباهرة مستكنة فى متحف الأعماق .

بذور حب لم يتح لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها .

الحكاية رقم (٥)

اليوم سعيد .

سأذهب فى صحبة أمى إلى زيارة حرم المأمور .

هطلت الأمطار فى الصباح الباكر ولكن الجورق وصفاء عند الضحى
وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتحدد جوانبه ولكننى
سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكناء ، فى نقرة ذقتها وشم ، ونبرتها ريفية
غريبة ، وضحكها عالية ، وقطعتها غزيرة الشعر نقية البياض ودائماً تسبح
بذكر الله .

وتعانق أمى مرحبة وأنا أنتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبث

بشعر رأسى ، ترفعى بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليا ، تضمنى إلى صدرها فأغوص فى أعماق طرية ، وأشعر بيطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها إلى جوارحى دفء مؤثر .

أسير وراهما وأنا أسوى ما تشعث من شعرى وملابسى ولما أفق من نفحة الدفء .

وتقول لأمى :

— بت أو من بأن القبو مسكون بالعفاريت ..

فتبسمل أمى فتقول الأخرى :

— إتهم بخرجون عقب منتصف الليل .

فتقول لها أمى محذرة :

— إياك وأن تنظرى من النافذة .

والأعب أنا القطة حتى تتوارى تحت الكنبه . أنظر إلى رأس ثور مثبت فى الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول إليه . المضيقة تقدم لى قطعة هريسة فأتناولها . أمنى النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة . ويطول الحديث ويتشعب .

وتشعل المرأة المصباح الغازى المدلل من السقف .

تدور حول المصباح فراشة .

أتساءل متى تحب لحظة الوداع الواعدة بالدفء ؟



نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام

الحكاية رقم « ٦ »

على حصيرة واحدة نقعد صبيانا وبنات فى الكتاب . نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرق مفرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبى وقدم بنت . وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه ، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية .

تسترق عينائى النظر إلى درويشة وهى تقرأ أو تأكل . فى الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثم أسير إلى بيتى حاملا لوحى وصورتها .

وفى موسم القرافة أضيق بالمكوث فى الحوش فأمرق إلى الخارج فنتلاقى — أنا ودرويشة — بين القبور المكشوفة بلا تدبير .

وأشطر فطيرتى فأعطيها النصف ، نأكل وتبادل النظر .

— أين تلعبين ؟

— فى الزقاق .

هى تلعب فى الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلل إليه فى النهار . يمنعننى إحساس خفى ولكنه غير برىء . ونواعد بالنظر وبلا كلام . ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب .

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام .

— نجلس ؟

ولكنها لا تجيب .

أجلس على العتبة وأشدّها من يدها فتجلس . أتزحزح حتى تتلاصق .
يغمرني شعور بسرور غريب ذي أسرار . أمد يدي إلى ذقتها فأدير وجهها
إلى . أميل نحوها فأقبلها . أحيط خاضعتها بذراعي . أصمت وأهيم
وأذوب في دفقة إحساس مبهمّة فأعرف السكر قبل الخمر .

وننسى الوقت والخوف .

وننسى الأهل والحارة .

حتى الأشباح لا تفرقنا .

الحكاية رقم (٧)

في ليالي الصيف نسهر فوق السطح ، نفرش الحصيرة والثلث ،
نستضيء بأنوار النجوم أو القمر ، تلعب من حولنا القطة ، يؤنسنا نقيق
الدجاج . وتنضم إلينا في بعض الأحيان أسرة جارنا الحاج بشير . وهي
أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن في العاشرة . يحلو لهن في
أوقات السرور أن يغنين معا أغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب
شغفي بالبشرة البيضاء والأعين الملونة . أهيم بالأم وبناتها وألح في طلب
السماع ، ويستخفني الطرب فأشارك في الغناء وأحرز في ذلك نجاحا
وإعجابا حتى تقول جارتنا :

(حكايات حارتنا)

— ما أحلى صوتك يا ولد !

وأجد في مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتي الصوتية كما يجد فيه قلبي الصغير نشوته في حضرة البهاء الأنثوى . ويصبح الغناء هوايتي ، وسماع أسطوانات المهدية قرة عيني ، أما أغنيات الجبل فينشدها قلبي وحنجرتي معا .

وتقول جارتنا لأمي ذات يوم :

— الولد له صوت جميل .

فتقول أمي بسرور :

— حقا ؟

— لا يجوز إهماله !

— فليغن كيف شاء فهو أفضل من العفرتة .

— ألا تودين أن يكون ابنك مطربا ؟

فتؤخذ أمي ولا تجيب فتواصل الجارة :

— ما له سى أنور وسى عبد اللطيف ؟

— إني أحلم أن أراه يوما موظفا مثل أبيه وإخوته ..

— المغنى يربح أكثر من مصلحة حكومية .

وأصغى باهتمام وأنا جالس على حجر الجارة مزهوا بالدفء والمجد .

ولا تدوم أيام السعادة والفن طويلا فذات يوم أرى أمي تهز رأسها بأسف وتتمتم :

— يا للخسارة !

فأسألهما عما يؤسفها فتقول :

— جيراننا الطيبون راحلون إلى بر الشام .

ينقبض قلبي بالرغم من أننى لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل :

— أهو بعيد ؟

فتجيب بحزن :

— أبعد مما نستطيع أن نبلغه .

أود من صميم قلبي أن أغير الواقع ، أن أرجع الزمن إلى أمس ، ولكن كيف ؟

وأودعهم للمرة الأخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبل يد الحاج بشير . وأتبع الحانطور نظرى حتى يخفيه منعطف النحاسين . وأبكى طويلا وأعانى مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية ..

الحكاية رقم « ٨ »

مواسم القرافة تعد من أسعد أيامى البهيجة .

نشرع فى الاستعداد لها مع العشى بإعداد الفطير والتمر . وفى الصباح الباكر أمضى بين أبى وأمى حاملًا الخوص والريحان ، تتقدمنا الخادمة بسلة الرحمة .

يسرنى تدفق تيارات الخلق ، وطواير الكارو ، وأعرف باب الحوش كصديق قديم . ويجذبنى القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشايعين ،

وسره المنطوى ، وبإجلال والدى له ، كما تجذبني شجيرة الصبار . وتحت
قبة السماء تنطلق مني وثبات فرح . ودفقات استطلاع لا يكدرها
شيء ، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضريع وجماعات الشحاذين
المتكالبين على الرحمة .

وتتغير الصورة بدخول همام في إطارها .

نجىء أختى وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن . همام في الرابعة أو يزيد
عنها قليلا ، أجد فيه رفقا ذا حيوية وجاذبية ، يخرجني بمؤانسته من
وحدتي . جميل خفيف الروح ، يلاعبني بلا ملل ويصدق أكاذيبي
وأوهامي .

وأجده ذات يوم راقدًا وصامتًا ، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا
يستجيب ، وأخبر بأنه مريض ..

ويطبق على الجواهاتام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى
أحاسيس مبهمة وغير سارة ، ويزيد من تعاسني قلق أُمى وجزع أختى ثم
حضور زوجها ..

وأسأل عما يحدث فأبعد عن المكان ويقال لي :

— لا شأن لك بهذا .. العب بعيدا ..

ولكني أشعر بأن حدثًا غير عادي يحدث ..

إنه خطير حتى إن أُمى تبكى . وأختى تصرخ . والملح من بعيد صديقي
مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يترك له متنفس . وأخيرا يتردد اسم
الموت من قريب . وأفهم أنه فراق يطول فأبكي مع الباكين ، ويتألم قلبي
أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من أيامى البهجة ، ويتغير وقع منظره . أود أن أطلع على خفاياه ، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كر الأيام . إنه الحزن والحب والضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب .

الحكاية رقم « ٩ »

خير يتردد فى البيت والحارة .
تقول إحدى الجارات لأمى :
— أما سمعت بالخبر العجيب ؟
فتسألها عنه باهتمام فتقول :
— توحيدة بنت أم على بنت عم رجب !
— ما لها كفى الله الشر ؟
— توظفت فى الحكومة !
— توظفت فى الحكومة ؟
— إى والله .. موظفة .. تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال !
— لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنها من أسرة طيبة .. وأمها طيبة ..
وأبوها رجل صحيح !
— كلام .. أى رجل يرضى عن ذلك ؟
— اللهم استرنا يارب فى الدنيا والآخرة ..

— يمكن لأن البنت غير جميلة ؟
— كانت ستجد ابن الحلال على أى حال ..
و أسمع الألسن تلوك سيرتها فى الحارة ، تعلق وتسخر وتنتقد ، وكلما
لاح أبوها عم رجب أسمع من يقول :
— اللهم احفظنا ..
— يا خسارة الرجال !
توحيدة أول موظفة من حارتنا . ويقال إنها زاملت أختى الكبرى فى
الكتاب . ويحفظنى ما سمعته عنها إلى التفرج عليها حين عودتها من العمل .
أقف عند مدخل الحارة حتى أراها وهى تغادر سوارس ، أرنو إليها وهى
تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات فى
حارتنا . وتلقى على نظرة خاطفة أو لا ترائى على الإطلاق ثم تمضى داخل
الحارة . وأتمم مرددا كالبيغاء :
— يا خسارة الرجال !

الحكاية رقم « ١٠ »

أم عبده أشهر امرأة في حارتنا .
في قوة بغل وجرأة فتوة ، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع أمام
عنفها .

ولها بنتان جميلتان ، دولت وإحسان .
في أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، من التاجر والعامل والبائع
والصعلوك ، كل أسرة لها عمل وأجر ، هي الوسيطة والشفاعة والخاطبة
والدلالة والمناشطة ، وعند الخصومة فهي القوة التي تبطش بالخصم .
وتزور أمى أحيانا فتحكى لها عن أحوالها . وقد يقتضى الأمر تمثيل ما
وقع في آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب
والسب والقذف حتى يتوهم السامع أن التمثيل مشاجرة حقيقة ..
وهي تجاملنا في المواسم فتجئنا بالكارو تمنى بنا إلى زيارة المغاوري
وأبى السعود طبيب الجراح .

وأنا الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة . أذهب إليه بقلب طروب
يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد في الفناء ، ويتوق للقرب من دولت
وإحسان .

دولت فتاة طيبة ، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . يحبها شاب
متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا بمصاهرة أم عبده .

إحسان صورة مصغرة من أمها في أخلاقها ولكنها باهرة الجمال .
مطبوعة على العنف والجراة والبذاءة، تتحدى أمها نفسها فتتشب بينهما
المعارك المثيرة. ويطلب يدها فتیان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة
فريدة كما حدث لأختها دولت. وإلى صديقها رغم فارق السن. غرائزى
الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج فى عینى بأشواق مبهمة. يهرنى
حجمها المترامى وأعضاؤها الثرية المتراقصة. وتدعونى أحيانا لأساعدها
وهى تغسل فى الغناء. أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وأمضى
كالترنخ من ثقلها. أجلس قبالتها لأنسلم منها الملابس بعد عصرها لأكرمها
فى الطشت. فى أثناء ذلك تتلصص عینای وهى تراقق تطلعاتى باسمه.
وتقول لى ذات مرة :

— خذ منديل واذهب به إلى الشيخ لبيب .
وأذهب إلى الشيخ لبيب فى مجلسه قبيل القبو . يتربع على فروة بجلبابه
المزركش وطاقيته البيضاء ، مكحول العينين مزجج الحاجبين . أعطيه
المنديل ومليما وقطعة سكر ، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول :

— عما قريب يمتلئ الكرار ويغنى العصفور ..
وأرجع إليها وأنا أردد ما سمعته لأحفظه ، ويسعدنى دائما أن أؤدى لها
خدمة من الخدمات .

ويطلب يدها صاحب محل فراشة ، غنى فى الخمسين ذو زوجة
وأولاد ، فتزوج منه . تعاشره عامين ثم تختفى من بيته ومن الحارة جميعا
مخلقة وراءها ضجة وعارا وإصابة فى كبرياء أم عبده .

وفي ذات ليلة من ليالى الزمن الجارى الذى لا يتوقف أجدنى وجها
لوجه مع إحسان . ترقص وتغنى :

عومى على الميه يا بت يا شاميه
وترانى فيشع من عينها نور العرفان . أقف ذاهلا ولكنها تتلقانى ببساطة
وبابتسامة مشجعة . تقبل نحوى فتأخذنى من يدى إلى حجرتها ثم تغلق
الباب وتغرق فى الضحك . وتقول لى بعد أن جلسنا :

— الدنيا واسعة ولكنها فى النهاية كالحق .

وأتفرس فى وجهها فتسألنى عن أمها قائلة :

— كيف حال أم عبده ؟

— عال .

— ودولت أختى ؟

— بكرتها فى المدرسة .

— ووالدتك وأخواتك ؟

— بخير .

فتقول بمودة :

— زرنى كثيرا .

وأسألها بعد تردد :

— كيف جئت إلى هنا ؟

فتضحك وتقول ساخرة :

— من نفس الطريق التى جئت منها أنت !

الحكاية رقم (١١)

نقف في فناء المدرسة الابتدائية جماعات تنتظر نتيجة القبول . أنهيينا مرحلة الكتاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن نتظر إعلان النتيجة . ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضي في تلاوة الأسماء من كشف بيده ثم يقول :

— ليق منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم .
لم أسمع اسمي . تشيع في نفسي فرحة شاملة . أعتقد أن سقوطي هو نهاية علاقتي بالتعليم وعصى المدرسين ، وأننى سأستقبل من الآن فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألنى أبى عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

— سقطت ورجعت إلى البيت .

— اخص .. تصورتك أفضل مما أنت ..

فأقول بسرور :

— لا يهم !

— لا يهم ؟

— إني أكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ وأكره الدروس .. فالحمد لله

على أننى تخلصت من ذلك كله ..

فيقطب أبى متسائلا :

— أتظن أنك ستمكث في البيت ؟
— نعم ، هذا أفضل .
— لتلعب مع الأوباش في الحارة ، أليس كذلك ؟
فنظرت إليه بقلق فقال بحزم :
— سترجع إلى الكتاب عاما آخر ، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك ..
وأهم بالاحتجاج فيقول :
— استعد لعمر طويل من التعلم ، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى
تصير رجلا محترما ..
ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات !

الحكاية رقم « ١٢ »

ماذا يحدث للعالم ؟
يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تنفجر
بمناجرها الهتافات ..
الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدران
حارتنا ويصم الآذان ، إنهم يصرخون ، وبقبضات أيديهم يهددون ،
وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن في الجنون ..
وأحلق فيما يجري من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للعالم ..
وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من

الألفاظ الجديدة السحرية ، سعد زغلول ، مالمطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام ..

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صرور سعد زغلول تلصق بالجدران ، إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .
وأقول لنفسى إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسل شديد البهجة .
غير أننى أشهد مطاردة .

يندفع أناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، يتحصنون بالأركان .
يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة . تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات ، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول :
— إنه الموت .

نزهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شئ إلا أصوات متضاربة ، وقع أقدام ، سهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب .

يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت .
ويتردد المدبر ولكن — هذه المرة — من بعيد .. ثم يسود صمت مطلق .

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف .
وأعرف بعض الشئ معانى الألفاظ الجديدة ، سعد زغلول ، مالمطة ، السلطان ، الوطن ، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت .

تزورنا أم عبده في غاية من الانفعال ، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال ، وتنعى إلينا علوة صبي الفران ، وتؤكد أن جياذ الفرسان حرنت أمام سور التكية وألقت الفرسان عن منها .. وأقول لنفسى إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق .-

الحكاية رقم « ١٣ »

مهذب ذكى العينين قصير القامة في مطلع الشباب ، قيل لى :

— ابن عمك صبرى .

أعرف أباه — عمى — معرفة سطحية فهو لا يبرح الريف إلا نادرا ، أما صبرى فإنه يرى القاهرة لأول مرة . وأعرف أيضا من أحاديث الليل أن عمى أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدارسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثورى في موطنه إلى مراكز الأمن .

أسأله وأنا أرمقه بشغف :

— أنت من شبان المظاهرات ويحيا سعد ؟

فيتسم ولا يجيب .. إنه يبدو أعمق من سنه .

ويقول له أبى :

— هذا بيتك ، وأنت الآن آمن ، ولكن كن على حذر .

وأقول لأبى :

— ولكنك يا بابا أضربت مع الموظفين ؟

— فينهرنى :

— لا تتدخل فيما لا يعنيك .

ويعارس صبرى حياة تلميذ مجتهد ذى طاقة كبيرة فى العمل .
غير أن القلق يلوح فى عينيه الذكيتين ذات مساء فأسأله عما يقلقه
فيسأل بحذر :

— ماذا دعاك إلى السؤال ؟

— لست كمعادتك .

فيدعونى إلى المشى فى الحارة . نتسكع فى الحارة وفى ميدان بيت
القاضى حتى يهبط الليل . ويهمس فى أذنى :

— تستطيع ولا شك أن تحمل ورقة إلى هذا أو ذاك من الناس ؟

— ولكن لماذا أفعل ذلك ؟

— لا تفعله إذا كان يضايقك .

وأوافق ليعهد إلى بمهمة أيا تكن .

وأمضى لأوزع أوراقا على أصحاب الحوانيت والمارة. يتناولونها
بدهشة، يلقون عليها نظرة سريعة، يتسمون ثم يواصلون العمل أو المشى.
وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألنى :

— مبسوط ؟

أعرب له عن سرورى الذى لا حد له فيقول محذرا :

— إياك أن تخبر عمى أو امرأة عمى .

ولا أعلم أننى كنت أوزع منشورات سياسية إلا بعد مرور فترة غير

قصيرة .

الحكاية رقم « ١٤ »

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزلية . من عجب أنهم يهزلون في الفترات القصيرة التي تفصل بين المصادمات الدامية . ها هي مظاهرة ضخمة تسوق في مقدمتها حمارا مدثرا بقماش أبيض نقش عليه بالأحمر :

« السلطان فؤاد »

ابن بلد يمتطى الحمار واضعا على رأسه قبعة بريطانية ، والهدير يصطخب :

يا فؤاد يا وش القملة - من قالك تعمل دى العملة
وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد .

وأحمل لأبى خبرا من الحارة أثار خيالى فأقول له :

— يقولون إن اسم سعد يرى منقوشا على البيض بعد خروجه من
الدجاج .

فيضحك أبى ، ويضحك ضيف يجالسه . ويقول الضيف عن سعد :

— كان أعداؤه يتجنبون النظر فى عينيه وهم يجادلونه تغاديا للشماع

الحاد الذى ينطلق منهما .

ويطرب أبى للكلام ويتمتم :

— إنه هدية السماء إلينا .

فيقول الضيف متحمسا :

- انتهت سنون النحس وبدأت أيام السعد .
ويتنهد أبى قائلا :
— يا أسقى على الرجل الشيخ المريض فى منفاه .
فأذهل وأسأل :
— سعد مريض ، كيف هذا يا بابا ؟
ولا يعيرنى التفاتا فأصر قائلا :
— سعد لا يمكن أن يمرض .
ثم ييقين أشد :
— لم يبق إلا أن تقول إنه سيموت مثل همam ابن أختى .

الحكاية رقم (١٥)

ويزور أبى جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة . لا حديث
هذه الأيام إلا عن الثورة . حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة ،
ولعبنا فى الحارة مظاهرات وهتافات . وتصبح دوريات الإنجليز منظرا
مألوفنا لدينا ، نعمن فى الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن
وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجب .
يدور الحديث بين الزوار عن الثورة .
— من يصدق هذا كله أو بعضه ؟
— إنه الله الرحمن الرحيم .



سعد مريض ! كيف هذا يا بابا ؟

(حكايات حارتنا)

- يخلق الحى من الميت .
- الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يقتلون ويقتلون .
- الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الإمبراطورية .
- انقطعت المواصلات تماما ، أصبحت مصر دويلات مستقلة !
- والمذابح ؟
- مذبحه الأزهر .
- مذبحه أسيوط .
- العزيزية والبدرشين .
- الحسينية .
- لا أنا ولا أنت ، ليحى سعد !
- لى والله ليحى الساحر العظيم .
- ولكن الأموات يفوقون الحضر .
- أحياء عند ربهم .
- وينبرى رجل ليقص سيرة سعد كما يعرفها ، ومواقفه مع الإنجليز
والخديو قبل الثورة .
- والمح أى تغرورق عيناه بالدموع .
- أراقبه بذهول محتقنا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على
خدى .

الحكاية رقم (١٦)

سلومة أول شهيد من أبناء حارتنا . حقيقة أن علوة صبى الفران أول من قتل في حارتنا ولكنه في الأصل من أبناء كفر الزغارى . وعم طلبة — أبو سلومة — يباع يسرح بعربة غزل البنات ، وكان سلومة يعاونه ، وينام على مقدم العربة إذا أنهكه التعب .

وتحترق مظاهرة ميدان بيت القاضى فينضم إليها سلومة بتلقائية دون أن ينتبه إليه أبوه . وتنقض على المظاهرة قوة إنجليزية في خان جعفر وتطلق عليها النار . يصاب سلومة برصاصة في رأسه ويسقط قتيلا .

وينتشر الخبر في الحارة فيجتاحها حزن ، ويهزها الفخار والإكبار . ويقبل الناس على طلبة يعزونه وينثرون بين يديه لآلئ الكلمات . ورغم حزن الرجل وتهالكه فإنه يمارس إحساسا جديدا لم يعرفه من قبل ، يرى نفسه لأول مرة محوطة بأهل الحارة من كافة الطبقات ، يفوز بإكبار من لم يبالوا من قبل برد تحياته ، وتهال عليه نفحات الموسرين من التجار والمعلمين .

وتكون جنازة سلومة أعظم جنازة تشهدا حارتنا ، تصفر إلى جانبها أى جنازة سابقة من جنازات الفتوات والأعيان ورجال الدين . سعى وراء النعش المكمل بالعلم جميع الذكور ، وحياء النساء من النوافذ والأسطح ، وانضم إلى المشيعين مئات من الحواري المجاورة ، فبلغت

الحسين فى ضخامة مظاهرة وجلالها .
وتصير الجنازة حديث الناس ، ويمسى سلومة اسما ورمزا ، ويحظى
الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة ، وينوه المعلقون بعجائب الحياة
المغيرة للقيم فى لحظة من اللحظات الساحرة .

الحكاية رقم (١٧)

استيقظت ذات صباح فأجد فى بيتنا امرأة وفتاة .
وتقول أُمى :
— تعال سلم على عمّتك وبنّت عمّتك سعاد .
أسلم بحياء من يراهما لأول مرة . المرأة تشبه أُمى حقا ، الفتاة غاية فى
الجمال .
وتسألنى عمّتى :
— فى أى سنة دراسية يا حبيبى ؟
— الثانية الابتدائية .
وأفّتن بالفتاة فتملؤنى بسحر لطيف وأحلام عذبة .
وأعرف أن عمّتى جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهزها وأن زفافها
وشيك . وتشغل أيامهما المكدودة بالقاهرة بالتردد مع أُمى على محال الأثاث
والنجارين والمنجدين .
وفى أوقات الراحة تتبدى سعاد فى ثوب أنيق وزينة جذابة ، تتألق

بالوان العرائس وتعبق بشذاهن .

وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض .

وتقول لى وهى تنظر إلى الحارة من خصائص النافذة :

— حارتكم مسلية جدا .

— تعالى أفرجك على أزقتها والقبو والتكية .

تجاهل دعوتى . تتسلل نظرائى إلى عنقها وأسفل ساقها ، أتوق إلى

تلاق غامض وإشباع مبهم ومغامرة مجهولة ، أريد أن ألمس خدها المتورد ،

لا أريد أن أصدق أنها سترحل بعد أيام ، وأن قلبى لن يجد من يؤنسه .

وأستجمع شجاعتى وأقول :

— أتعرفين .

وينقطع الصوت والتفكير فتتساءل هى بنبرة محرصة على مواصلة

الحديث :

— أتعرفين ؟

ألوذ بالصمت فتسألنى :

— لماذا تنظر إلى هكده ؟

— أنا ؟!

— نعم ، رأيتك ، لا تنكر .

وتضحك ضحكة قصيرة ثم تقول :

— أنت ولد شقى .

وينقبض قلبى من الشعور بالذنب .

وأرى أُمى وعمتى ذات يوم وهما يتناوبان النظر فى صورة فوتوغرافية
لسعاد . وتقول عمتى :

— أصر العريس على رؤية الصورة .

— وأبوها وافق ؟

— يعنى .

ويترامى إلينا صوت أبى من حجرتة :

— تصرف غير لائق !

فتقول أُمى :

— الزمان غير الزمان !

وتقول عمتى :

— ما هى إلا صورة ، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أبى بنبرة لا تطلو من احتجاج :

— على خيرة الله .

أتابع الحديث بحزنه خفى . تطالعنى من ثناياه نذر الفراق الأبدى

ووجه الكآبة فى الأنف .

وتمر أيام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن إيقافها .

وتجىء لحظة الوداع .

وأرئو إلى خد سعاد المورّد كرهيف خالرج لتوه من القرن .

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل .

وتضحك أُمى من لوعتى دون أن تفتن إلى عمق أشجائى .

الحكاية رقم ١٨ ،

الفرحة ترقص فى القلوب ، والنشوة تشتعل فى النفوس ، يوم عودة
سعد .

أنى يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقة ، زرطربوشه مفقود ،
عقدة رباط عنقه غائصة فى ثنية الياقة . جاكنته تنضح بالعرق والتراب ،
صوته مبحوح كأنه سعل دهرًا ، ولكن عينيه تتألقان بنور ظافر . يستلقى
على الكنبه ويقول :

— هتفت حتى ضاع صوتى ، نسيت نفسى تماما .

ثم بارتياح عميق :

— تجمعت الدنيا كلها فى ميدان السيدة ، سبحانك يا رى ما أكثر

عبادك !

ويحتاج الحارة إحساس غامر بالنصر ، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق
الأبواب . وتطبق المظاهرات على حين لا تريد أن تنتهى . سعد .. سعد ..
يحيا سعد . وتلهب حرارة المتفافات خيالى ، وآسف على أن المظاهرات لا
تدخل حارتنا شبه المسدودة التى لا مخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر
الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة .

وأسأل أُمى :

— سيرحل الإنجليز ؟

فتجيبني بيقين :

— إلى غير رجعة .

وفي الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالا خاصا . تضاء الكلوبات
في هامات الدكاكين ، ترتفع الأعلام ، تدوى الزغاريد وتتطوع العالمة
ألماظية بإحياء الليلة . تقيم سديتها في الوسط أمام الوكالة يحف بها تحتها ،
ترص الكراسي أمامها ، وعلى أنغام العود والقانون والناى والرق يرقص
الرجال ، وتغنى هي :

ليالى الأنس عادت بالليالى

وتغنى أيضا :

يا بلح « زغلول » يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها :

ياواد يا أللبنى كان جرى لك إيه يابن المره

جه الاستقلال غصبا عنك وعن انجلترا

وتكتظ البوطة بالسكارى وتشتعل الفرز بنيران المجامر ، وحتى

المجازيب والمتشردون واللصوص يسهرون ويفرحون . ويشارك عم طلبة

أبو الشهيد في الحفل ، والشيخ ليب يحضره .

وأسهر أنا في النافذة ، وقوى مجهولة تشحن قلبى الصغير بحبوية

سحرية .

الحكاية رقم (١٩)

أبى ينظر إلى نظرة غامضة ويسألنى :

— ماذا فعلت ؟

فأجيبه بسرور وزهو :

— اشتركت فى المظاهرة الكبرى .

— كان يمكن أن تدوسك الأقدام .

— كان الصغار كثيرين .

ويدارى أبى ابتسامة ويسألنى بنبرة ممتحن :

— الآن سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلم تضربون ؟

— أضربنا لتأييده فى موقفه ضد الملك .

— من قال لك ذلك ؟

— رئيس الطلبة ، قال إن سعد زغلول قدم استقالته احتجاجا على

موقف الملك من الدستور ، وأنا ذاهبون لتأييد الزعيم .

— هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك ؟

وأتوقف عن الاسترسال مرتبكا فيضحك أبى ولكنى أبادره :

— نحن مع سعد وضد الملك !

— عظيم ، وماذا كان هتافكم فى عابدين ؟

— سعد أو الثورة .

- ما معنى ذلك ؟
وأتفكر قليلا ثم أقول :
— معناه واضح ، سعد أو الثورة ..
وهو يتسم :
— عظيم ، ومن الذى انتصر ؟
— سعد ، وهتفنا : عاش الملك ويحيا سعد .
ثم أقول بحماس :
— الاشتراك فى المظاهرة أمتع من أى شىء فى الدنيا .
فيتسم أبى ويقول :
— بشرط ألا يشترك فيها الإنجليز !

الحكاية رقم (٢٠)

يحيى مذكور أمهر لاعب كرة فى مدرستا ، وصديقى المفضل فى المدرسة الابتدائية .
أجده يوما يقرأ كتابا فى الفسحة فأسأله :
— ما هذا ؟

— ابن جونسون .. الحلقة الأولى من سلسلة بوليسية جديدة ..
ويعيرنى الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل .
وأواظب على قراءة السلسلة ، ثم أنتقل من سلسلة إلى أخرى ، ومن كتاب

إلى آخر ، ثم أدمن القراءة .
وأصير مع الزمن بطلا من أبطال القراءة ، أما صديقى فهجرها سريعا
ثم يتربع على عرش الكرة .

الحكاية رقم « ٢١ »

إبراهيم توفيق مقترن فى ذاكرتى بالتهريج والتحدى ، خفيف الروح
نصف مجنون . يطل هواة لعب الكرة « الزلط » فى فناء المدرسة . نتقى
عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة فى حجم الجوزة لتقوم مقام
الكرة ، نخوض بها مباراة يومية فى فسحة بعد الغداء . والمباراة « الزلطية »
ممنوعة رسميا ولكن يفضى عنها عادة ، وتمارس بعنف فى أثناء تناول
الضباط طعامهم ، ويكف عنها فورا عند مرور الناظر ، أما عواقبها
الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء .

وفى الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشه حتى يصير مثل
طاقة ، ويرتدى جاكته بالمقلوب ، ويحاكى مشية شارلى شابلن ذهابا
وإيابا على إيقاع تصفيقنا ، ثم يختم لعبه بإنشاد مونولوج :

يا عديم الخال يا قليل المال

رفعتك محال فى زمن الأندال

ويوما يتباهى بالمقالب التى يدبرها لزوج أمه فيقول له احذنا :

— أتحداك أن تأكل قرن فلفل حامى !

والتحدى يستفزه لمصارعة المحال فيهتف :

— آكل عشرة !

ويتراهن فريقان . نبتاع من يباع الفول عشرة قرون فلفل حامية ،
وتحلقناه فى حماس ..

ويتناول إبراهيم القرن الأول ويأكله مبدىا ثباتا واستهانة ..

ويتناول الثانى محافظا على ثباته واستهانتة ..

ويتناول الثالث فلا يتغير من مظهره شىء إلا أنه ازدرد ريقه بصورة
ملموسة .

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة .

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوة إرادته ويسعل بشىء من
العنف .

وعقب تناول السادس يبدو كأنه يقاوم عدوا مجهولا اندس فى
أعماقه ، وتفيض عيناه بالدمع ..

وهو يأكل السابغ يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة ..
ويصيح بعض ضعاف القلوب :

— أوقفوا الرهان ..

ولكنه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنما لا يستطيع النطق .
ويلتقى ماء عينيه بماء أنفه فى مجرى على ذقنه وعنقه ويتتابه سعال
متقطع .

ويستحيل وجهه قرمزيا وتنتفخ شفتاه ولكنه يلتهم القرون حتى آخرها
وسط التهليل والتصفيق ، ويربح ..

ولكنه لعله لا يشعر للنصر بلذة ، إنه صامت محتقن زائغ البصر ، وعلى

هذه الحال ندخل حصّة الدين . والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الإهمال والشقاوة ، يقول له :

— إبراهيم توفيق ، سمع ﴿ تبارك الذى ﴾ .

ويلبث إبراهيم صامتا مغمورا بهمومه الخفية فيصيح به الشيخ :

— قف يا ولد وسمع ..

ولكن إبراهيم لا يتحرك على حين تصدر من الأركان همهمة يظنها الشيخ لعبة متفقا عليها فيصيح :

— الأدب يا أولاد الكلاب ، قم يا مجرم .. قم لا بارك الله فيك ولا فيمن أنجبك ..

ويقترّب الشيخ منه فى مجلسه فى آخر الحجرة فيبوله منظر وجهه فيتوقف متسائلا :

— ماذا بك ؟ .. لماذا تبكى ؟

عند ذاك يتكلم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجب ويقول :

— أعوذ بالله .. يا أولاد الأبالسة .. كلكم مجرم وابن مجرم .

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعف فى حجرة الطبيب .. ولكن إبراهيم لا يكف أبدا عن التهريج والتحدى ..

الحكاية رقم « ٢٢ »

هاشم زايد يجلس إلى جانبى على قمطر واحد .
طويل القامة مفتول العضلات ولكنه وديع خجول وطيب وحسن
السلوك . أمه أرملة غنية تملك بيوت زقاق برمته وشريكة أكبر عطار فى
الحارة ، لذلك نخصه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد . تنهادى إليه
نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلا أن يضحك فيراه المدرس دون
الفاعل الحقيقى فينال جزاءه صفعة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ
المؤدب .

ويفشل هاشم فى المدرسة فيتركها ، وتموت أمه فيصير من أكبر أعيان
الحارة فى لحظة واحدة . وتفرق بيننا السبل . أراه أحيانا مستقلا الكارثة
أو جالسا فى ملابسه البلدية وسط هالة من المريدين . إنه يتحول إلى
شخصية غريبة فألتجنب حتى مصافحته . إنه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته
فى العدوان وفرض إرادته على العباد . كيف يتحول الصبى الخجول
الطيب إلى وحش شرس ؟. إنى أتفكر وأتخيل دون جدوى ..

لا يمر يوم فى حياته بلا معركة ، اللكمة عنده أسرع من الكلمة ،
والنبوت مفضل على اللكمة ، ويحل بالمكان فيتجنبه الناس كأنه وباء ..
لو امتد زمن الفتوات إلى زمانه لفرض نفسه فتوة ، وهو يزعج القسم
كما يزعج الحارة ، ويبست أياما بسعجن النقطة ولكنه يرشو المخبرين وشيخ



ولكنه يصب غضبه على جميع من شهد دموعه

الحارة .

تحف به دائما بطانة ولكن لا صديق له ، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يعرف عنه أى ولع بالنساء . وعلاقته بذكرى أمه مثيرة محيرة ، يتذكرها أحيانا بحزن عميق ويتنزل على روحها الرحمت ، وأحيانا ينتقدها بمرارة وسخرية ، يقول :

— كانت بخيلة شحيحة ، تهمل نفسها لحد القذارة ، وتعامل الخدم بقسوة جنونية ..

ويغالى مرة فى الحملة عليها ثم — فجأة — يجهد فى البكاء ، ينسى نفسه تماما ويجهد فى البكاء ، ثم ينتبه لضعفه فيضحك ، ولكنه يصب غضبه على جميع من يشهد دموعه ، ويدو أنه يضمر لهم أو أنه سيضمر لهم السوء ..

ويختفى هاشم زايد من الحارة ومن البيت .

وتطول غيبته حتى ينوب رويدا رويدا فى ظلمة النسيان .

وتسمع من يقول إنه هاجر ، وتسمع من يهمس بأنه قتل وأخفيت

جثته ..

الحكاية رقم « ٢٣ »

ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف . أستيقظ مجذوبا من عالم الغيب
بقبضة مبهمه . يلفنى تيار من الطنين . أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب
الشر . أصوات بكاء تتسلل إلى من الصالة . تغرز أفكار السوء أسنانها فى
لحمى ، ويتخايل لعينى شبح الموت ..

أثب من الفراش مندفعاً نحو الباب المغلق . أتردد لحظة ثم أفتح بهشدة
لأواجه المجهول .

أرى أبى جالسا ، أمى مستندة إلى الكونصول ، الخادمة واقفة عند
الباب ، الجميع ييكون ..

وترانى أمى فتقبل على وهى تقول :

— أفرعناك .. لا تنزعج يا بنى ..

أتساءل بريق جاف :

— ماذا ؟ ..

فتهمس فى أذنى بنبرة مخنقة :

— سعد زغلول .. البقية فى حياتك !

فأهتف من أعماق :

— سعد !

(حكايات حارتنا)

وأترجع إلى حجرى .
وتتجسد الكتابة فى كل منظر .

الحكاية رقم « ٢٤ »

القطة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم
بغمضات العين فى حضنها . أنا وحيد فى الحجرة أتابع المنظر باهتمام .
فجأة تتردد أنفاس على كئيب منى فألتفت فأرى سنية . هى بكريه جارنا
ساعى البريد ، دقيقة القسمات خفيفة الروح ، مليئة بالحوية والمرح ،
تكبرنى ببضعة أعوام . تنظر إلى القطة بشغف وتهمس :

— ما أجملها !

أوافق بإيماءة من رأسى فتقول :

— أحب القطط ، وأنت ؟

أجيب وشعورى بتوحدنا يغمرنى :

— وأنا ..

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحس مس صدرها لكفى تواصل
الحديث فلا أتابعها . إنى أضطرم فيلتهم اللهب حياى ، أستدير فأضمها
إلى صدرى ، وتبدأ علاقة وطيدة ، مفعمة من ناحيتى بالسرور والندم .
أزداد بها معرفة ، جميلة جسورة بقدر ما هى حريصة . رغم سكراتها
المنغومة فبيننا حدود لا يمكن تخطيها . ألبى إشاراتها ، أهرع إلى ظلها ، أما

هى فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة ، تجذبنى إلى حديقة الورد ثم
تضرم فيها نيران الجحيم . لا نعرف السكينة ولا الأمان ، نقطف الثمار فى
رعدة من الرقباء ، نجرى فى حومة الحب خطافين نشالين مجانين ، نراوح
بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين ، وتنقلب الحياة أغنية مجنونة
تتفجر بالعدوبة والعذاب .

وتتزوج سنية عقب عامين من حبنا .
ونلتقى بعد أعوام وأعوام من زواجها .
أجدها مفرطة فى البدانة ، غافية النظرة ، رزينة ، جليلة ، راسخة
الاستقرار والوقار . نتافح ونتبادل حديثا روتينيا عن الأحوال والناس . لا
بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضت . سيدة مصونة ورمز حى
للأمومة ، ومثال للتدين والورع .
وأتخطى الحاضر راجعا إلى عهد صباها النضير ، وهى فراشة متعددة
الألوان ، تفاحة طازجة ، وردة فواحة ، ينبوع متدفق .
تلك الأيام السعيدة .

الحكاية رقم « ٢٥ »

فتحية ، الأخت الصغرى لسنية ، تماثلنى فى العمر .
مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق .
نظراتنا تتسلل فى استحياء فيستحوذ على أمل خلاب . أمد يدى
فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف ، وبرقة تقول لى :
— لا أحب العبث .
وأضيق بمجديتها فأقول :
— إنك لا تعرفين الحب .
فتقول بأسى :
— أنت الذى لا تعرفه .
وتقول معاتبة :
— أثبت لى أنك تعرفه مثلما أعرفه .
ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق ، ويصرفنى اليأس
فأتعزى بالزهد ، أمضى مصمما على النسيان ، ولكن ترجعنى الأشواق
أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقع فأجد نفسى مرة أخرى حيال قلب محب
وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين .
وطريقى شاقة وطويلة ، وفتاى محبوبية كثيرة الخطاب . يقول لها
أبوها :

— معنى الرفض أن تنتظري عشرة أعوام .
ثم يقول بحزم :

— القلوب تتغير بعد عشرة أعوام .

ويصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف إليه كسيرة القلب .
وتنجب أطفالا ، وترعى بيتا يعد مثالا للحياة الزوجية الموفقة .
وتغيب عن عيني وخيالي دهرا طويلا .

والتقي بها في مأتم وهي في الستين من عمرها ، أرملة منذ عشرة
أعوام ، فتتصافح وتطالعني بنظرة صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة .
يتحرك في أعماقي شيء غامض . تجتاحني موجة من التذكر والأسى ،
وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورأى .

وأعلم بأنها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز . وأجدني
أحادثها رغم كل شيء بجرأة مستمدة من ضالة ما يتبقى من العمر ، وأعزم
على زيارتها . وأتخيل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبنى ، ثم أبتهل في
خشوع إلى أشجان الوداع .

الحكاية رقم (٢٦)

ست نجية امرأة وحيدة .

عهدي بها وحيدة دائما ، في بيتها وحيدة ، مقطوعة من شجرة ، يرد اسمها بلا لقب ، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية .

صورتها لا تنسى ، قصيرة جدا ، مطبوعة بطابع كساح يتجلى في تقوس ساقها وبروز ذقنها ، ولها أنف كبير مثل مثل أذن حمار ، دميمة ولكنها غير منفرة لخفة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس .
تجىء معها في زيارتها لنا بالمرح والضحك ، فلا نهاية لنوادرها وقفشاتها ، وأتصورها دائما أسعد الناس .

بيتها مزرعة قطط وكلاب ، تولد وتنشأ في عزها مكرمة مدللة ، لكل اسمه وخدماته الغذائية والصحية والرياضية . هي مولعة بهن وهن مولعات بها ، وفي رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحي الحصومة الغريزية بين الكلاب والقطط فهن يعشن في اخاء ومودة .

تسألها أُمى :

— لم نرك من مدة يا ست نجية ؟

فتقول :

— كانت نرجس متوعدة المزاج .

أو تقول :

— كانت بركة تلد .

ودائما تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها ، وتحكى عن علاقتهما الخاصة باعتزاز وتنوء بنوادره .

تقول بمجدية :

— أمس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهى قبيل الفجر .. أو تقول :

— وجدت بلاص العسل فارغا فقلت له بالهنا والشفاء ..

بالصدق والمجدية تتكلم ، لعلها لا تتخلى عن المزاح إلا حين الحديث عن أخيها الخفى ..

وترزعم أيضا أن الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصة وأنها تفهمها ، ولكي تثبت صحة كلامها تمضى فى محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنفرق فى الضحك .

ولها خبرة راسخة فى قراءة الفنجان والورق وتفسير الأحلام ، وتتهم أحيانا بممارسة السحر والشيشبة حتى إن أم عبده لعنتها جهرا فى الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان ، ولكن طيبتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس ..

لا يكاد يطرق بابها أحد ، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها ، حتى الخدم لا يطيقون خدمتها ، فهى وحيدة فى بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخي ..

تقول لها أُمى وهى بصدد الحديث عن وحدتها :

— على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل .

فتجيبها جادة وهى تبتسم :
— ستبجح الكلاب حول جثتى وتموء القطط ، ويحضر أخى لبغمض
عينى ، ثم يفعل الله ما يشاء .

الحكاية رقم « ٢٧ »

تقول ضيفة لأمى :
— نظلة ، الله يسامحها .
فتسأل أمى عن الأخبار فتقول الضيفة :
— ما زالت بالجدع حتى أوقعته فتزوجها ، رعاها وجعلها من أسعد
نسوان الحارة ، وها هى الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض ..
وتسأل أمى عن حاله فتواصل المرأة :
— طريح الفراش ، وحيد ، يصق دما ويسعل حتى تنخلع ضلوعه ،
يتمنى الموت ، ولما أزوره يقول لى : « انظرى يا امرأة خالى ما فعلته
نظلة » فأشجعه وأواسيه وقلبي يتقطع ..
وأتحيل أن المريض والدم والمرأة الفاجرة .
ويمضى زمن ثم تزور الضيفة أمى وتقول :
— شوفى العجائب ، لم يكذب شهر على وفاة المرحوم حسن حتى
أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوجها ..
فتهتف أمى :

— نظلة ١؟

— ومن غيرها يفعل ذلك ؟، إلهى ينتقم منك يا نظلة يا بنت أمونة ..
وأتحيل أنا الميت والعاشق والفاجرة .
ويعضى زمن . ها أنا أذاكر دروسى فى حجرى فيترامى إلى صوت أمى
وهى ترحب بضيفه قائلة :
— أهلا بك يا ست نظلة ..

وأتساءل باهتمام ترى أهى الفاجرة ؟
وأتسلل إلى الصالة محتما بظلمتها وأرسل الطرف إلى حجرة
الاستقبال ، فأرى امرأة — بين الأربعين والخمسين — بضة الجسم حسنة
التكوين أنيقة الملبس . أعترف بأنها امرأة مثيرة .. وأنها تستحق أن
تُعشق . وأعرف عنها معلومات جديدة ، منها أن زوجها الثانى — خليل
— توفى أيضا بعد أن أنجبت منه ولدا ، وأنها تركت شقتها قبيل القبول لتقيم
فى شقة صغيرة فى بيت قريب هنا ، وأدرك أيضا أن أمى لا ترحب فى
أعماقها بزيارتها لنا . وأقول :

— إنها شريرة !

ولكن أمى تقول بحذر :

— الله وحده هو المطلع على الأفئدة ..

— تعطفين عليها رغم أنك لا ترحبين بها .

— سمعت الكثير ولكنى أرى امرأة ضعيفة وأما لولد لا رجل لها ولا

مال ..

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة . وتحيم على ذكريات

المرحومين حسن و خليل ولكنى لا أبالى . وأشعر بأننى مقبل على مغامرة
أخطر من جميع ما مررى من مغامرات . ولكن القصة لم تبدأ ..
ذات صباح تهز حارتنا صرخة مدوية .
ينتشر خبر بأن جارة ألفت على وجه نظلة ماء نار متهمة إياها بمحاولة
خطف زوجها .
تفقد نظلة سحرها إلى الأبد .
تضطر إلى العمل فى حمام الحارة .
يشدد بى الحزن فترة من الزمن وأررد ما سبق أن قالته أمى :
— الله وحده هو المطلع على الأفعدة ..

الحكاية رقم (٢٨)

يزورنا كثيرا .
أحبه لأنه يكاد أن يكون صورة متقنة لأبى . من أحاديثه المكررة فى
إلحاح أبدى أن يخاطب أبى قائلا :
— أيرضيك حالى هذا يا خالى ؟
فيقول له أبى :
— يا محسن ، اعتمد على الله وعلى نفسك ..
— يؤلمنى أننى غنى بما أملك من مال فى الأوقاف ولكنى عاجز عن
صرف مليم واحد منه .

— هذا حال كثير من المستحقين .

ويضطر إلى أن يعمل كاتباً بثلاثة جنيهات شهرياً في وكالة الأخشاب
بمخارتنا . وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة
العاطلة من الجمال والمال . ويتقدم به العمر دون أن ينجب فيمضي حياته
متحسراً . وتضرع زوجته إلى الله ألا يحل عقدة الوقف ، وتقول لأُمِّي :
— لولا الفقر لفجر ، لولا الفقر لطردني ..

لا حديث له إلا الوقف ، الوقف يا خالي ، الوقف يا امرأة خالي ،
واسمعه يردد بحرارة :

— يارب ، نفسي في لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائق وأنثى ،
أنثى حقيقية لا تمثال خشبي في هيئة امرأة ، يارب نفسي في ولد أو حتى
في بنت !

وتتقدم به السن أكثر ، وتدمع عيناه أحياناً وهو يرى نفسه حتى ينال
منى التأثير .

وتندفع الأحداث فخير من إيقاع الزمن ورؤيته وتنحل عقدة الوقف !

ويرقص ابن عمته من الفرح فأسأله :

— ما مقدار البذل الذي سيصرف لك ؟

فيقول بزهو :

— أربعون ألفاً من الجنيهات ..

يدور رأسى . أتفرس في وجهه بعجب . إنه بدنو من السبعين ، أبيض
الرأس ، ضعيف البصر ، هزيل الجسد ، ليس في فيه سنة ولا ضرس .
أسأله :

— ماذا ستصنع بثروتك ؟

فيقول متهللا :

— قلبي يحدثني بأننى سأمرح فى نعمته عز وجل ..

ثم يستطرد :

— سأشتري بيت عيوشة الحكيمة ، وأركب طاقم أسنان ،

وأ تزوج ..

— تتزوج ؟

— وسأنجب أيضا ، سوف ترى ..

ويجدد نفسه بتصميم كما يجدد الحياة من حوله . أبقى على سوسن ،
ولكنه يتزوج من توحيدة بنت يباع الطرشى وهى بنت جميلة دون
العشرين .

ويخبرنى ذات يوم قائلا :

— ولى العهد يتكون بإذن الرحمن ..

ويفرط فى الطعام بنهم لا يناسب سنه ، ثم يلزم الفراش عقب ستة أشهر

من الزواج .

وأعوده فيقول لى بصوت خافت :

— لست نادما ، أبدا ، الحمد لله رب العالمين ..

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة .

الحكاية رقم « ٢٩ »

على البنان صاحب محل البن فى حارتنا صديق . يموت أبوه فىحل مكانه وهو فى طور المراقبة .

وذات يوم يسألنى وأنا أجالسه فى المحل :

— هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرانة ؟

فأجيبه ورائحة البن الصارمة تسيطر على حواسى :

— أعرفها طبعاً ، حارتنا كلها تعرفها ..

— ما رأيك فيها ؟

— بنت فائقة الجمال وهى تشارك أمها فى العمل ..

— ماذا تعرف عن أخلاقها ؟

فأضحك قائلاً :

— ما أكثر ما يقال !

— ولكننى متأكد من الكثير ..

ويحكم العمامة فوق رأسه . ويقول :

— أعرف أنها سقطت أول ما سقطت مع حمدان صبى الفران ..

أهز رأسى موافقاً فيمضى هو قائلاً بنبرة اعترافية ثقيلة :

— ضبعت أيضاً مع الحنفى صبى محل الطرشى تحت القبو .

— إنك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من الضرورى ..

— وقيل كلام أيضا عن علاقتها بخفير الدرك !
فأسأله ضاحكا :

— هل تنوى كتابة سيرة لها ؟

— وأيضا مع حسنين السقاء !

فأغرق في الضحك وأقول :

— إنه لسلوك يستحق التأمل .

— ولعل ما خفى كان أعظم .

— من يدري فلعلها ليست الوحيدة في حارتنا !
فيتنهد قائلا :

— ولكنها الوحيدة التي أحبها !

فأخرج دفعة واحدة من جو المرح وأسأله :

— أتريد أن تنضم إلى طابور العشاق ؟

فينظر إلى طويلا ثم يقول :

— كلا ، لقد قررت أن أتزوجها !

— لا أصدق ..

فيقول بمجد وتجهم :

— إنه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه ، ولا يهمنى ما يقال !
وينفذ على البنان قراره .

الحكاية رقم « ٣٠ »

يشب بطريق الحموى فيجد نفسه متزوجا .
كان أبوه مقاول بناء أميا فأراد أن يفرح بآخر العنقود في حياته فاختار
له بنتا وزوجه منها وهو تلميذ في الرابعة عشرة من عمره .
يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه
المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .

وينجح « بطريق » في حياته المدرسية ويتفوق فيكمل تعليمه العالي ثم
يبحث إلى إنجلترا عامين . وعقب عودته يتعذر عليه التوافق مع ماضيه ،
زوجته خاصة ، يتنافران في كل شيء ، يضيق بجهلها وخرافاتهما ، يتهاوى
في الغربة والفشل ، ويقول لخاصته :
— لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا ..

ويتخذ قرارا حاسما وقاسيا ، من خلال معاناة طويلة ، فيطلقها .
ويلهج كل لسان في الحارة بلعنه ومروقه ، ولكنه يلقى المدد المعادى
ببرود ، بل ويتحداه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية ، يزعم
أنها فرنسية ، ويصر أهل حارتنا على أنها رومية من بين السوريين ! .
ويذهبان ويحيقان معا وهى تشع سفورا ونورا ، ترمقهما الأعين
بازدراء واستنكار ، ويترحم المترحمون على المعلم الحموى .
وتتطایر تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها

بالرجال ، وما يقال عن إدمانها الخمر ، وعن صحة عقيدتها الدينية ، هل يعتبر إسلامها حقيقيا ؟ ، هل تنشئ أبنائها نشأة إسلامية سوية ؟ يعانى بطريق الحموى ذلك كله ويتصدى له بما يستطيع من قوة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهب عليه بلا رحمة . ها هي زوجته تضيق بالحارة وأهلها ، وعاداته الأصيلة تتعرض لمؤاخذتها وسخريتها ، وهو كلما تهاون في حق طولب بالمزيد من الاستسلام ، حتى يسلم في النهاية بأنه غارق في التعاسة حتى أذنيه .
ويقال له :

— طلقها وأمرك الله ..

ولكنه يجيب بإصرار :

— محال أن أسلم بالهزيمة ..

أما هي فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنه يرفضه بإباء .

وإذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن .

وتمضى الأعوام وبطريق الحموى أعزب لا يفكر في الزواج .

يقترح عليه إخوته أن يرد زوجته الأولى فيقول ساخطا :

— هذا سخف !

— هل تعتزم استرداد الثانية ؟

— إنه الجنون نفسه .

ثم يقول برزانة وتأمل :

— لا بد من الزواج ، وعاجلاً أيضاً ، لم تضع التجربة هباء ، فإنى على الأقل الآن أعرف ما أريد ..

الحكاية رقم (٣١)

من قصص الحب المؤثرة فى حارتنا قصة سيدة كريم .
ينشأ حب عفيف مستور فى خفاء بينها وبين إدريس القاضى ابن الجيران ، رغم التكم والحياء تفضحهما النظرات وأحوال العاشقين .
ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرس اللغة العربية وعم تحسين القاضى بياع الحلوى . أدب ابنك ، ابنى مؤدب ، كلمة من هنا وكلمة من هنا ، فيوشك الكلام أن يتحول إلى فعل لولا تدخل أهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحد الأعين فيعانى العاشقان فى صمت وقهر . وعندما ينتهى إدريس من المرحلة الثانوية يقنع أباه بأن يخطب له سيدة ، فيمضى الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبا يد ابنته ، ولكن الشيخ يقول له بجفاء :
— ابنك تلميذ وبتى لا يمكن أن تنتظره ..

ثم يقول الشيخ لبعض خلائه :

— كيف يطمع فى مصاهرتى ذلك البياح الحقيق ١٩

ويتقدم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيدة .

ولكن سيدة ترفضه ! . ليس الرفض بالأمر الهين ولا المألوف ، إنه فى الواقع ثورة غير متوقعة أذهلت الشيخ والجيران ، وزلزلت الأسرة بالغضب (حكايات حارتنا)

والعنف والتأديب ، ولكن سيدة تصر على الرفض ، وتصارع أباها بأنها تمارس حقها الديني !

وكالعادة المردولة في حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتخلق الأوهام ، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقي درسه في الفصل .

وتتحمل سيدة مسئولية موت أبيها أمام الأسرة والناس . تصبح ملعونة شؤما متهمة متجنية كالمرض المعدى .

وتترشح الأعوام فلا يتقدم لها خاطب .

وينجح إدريس في دراسته العالية فيتقدم إلى عم حبيبته طالبا يدها ..!

ولكن لا يلقي إلا الرفض والتجهم ، حتى الأم لا توافق ..

وتمر الأعوام ، ثقيلة عند المعاناة ، خفيفة لدى العد والإحصاء ، سيدة شبه سجين لا يطلبها أحد ، وإدريس موظف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج . ولا يشك أحد من المقربين إليها أو المقربين إليه في صمود الحب وإصراره وتحذيه المتواصل لكافة العراقيين .

ويندب إدريس للعمل في بعض البلاد العربية وتنقطع أخباره أعواما ، على حين تجاوز سيدة ربيع الشباب ويغيب رونق صباها وتلبسها صورة تعاسة مجسدة .

ويرجع إدريس من غربته رجلا في منتصف الحلقة الخامسة . لم يعد أحد يذكر قصته ، ولم تعد القصة تثير أى اهتمام عند من يتذكرونها .



وتحد الأعين فيعاني العاشقان في صمت وقهر

وتعرف حقيقة غير مألوقة في حارتنا وهى أن إدريس ما يزال أعزب ، لم يدخل دنيا ولم يمارس أبوة .

ويعضى إدريس إلى أم سيدة يطلب يد ابنتها !
ويدهش كل من يعلم بالخبر معلقا عليه بأن سيدة لم تعد عروسا تسر الحبيب .

ويعم الزواج متوجا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء .

الحكاية رقم (٣٢)

سنان شلبى يعمل فى مطحن الغلال فيما يلى السبيل القديم . تلوح منه نظرة نحو النافذة فى البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجهها أسر فؤاده وسيطر على أقداره . يأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوة لم يكن يتصور وجودها بحال . وقال لنفسه : « لقد جننت يا سنان وما كان كان » .

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكن أم سعد هى التى تتصدى للمعاملة والتسوق ، وهى امرأة معروفة فى الحارة . والعلاقة بين أم سعد والجميلة غامضة ، عرضة لشتى الاحتمالات ، فالأسرة لا تزور ولا تزار ، فمن يكون سعد ؟ ، أين هو ؟ ، والمرأة أهى أم الجميلة ؟ ، قريبتها ؟ ، خادمتها ؟ ، ثم تنتشر أقوال تسيء ولا تسر .

يقول سنان شلبى :

— أريدها ، إني مجنون بها ، بالحلال أو بالحرام أريدها ، ولو دفعت حياتي الغالية ثمنها ..

ويوثق سنان علاقته بأم سعد في تردددها الدورى على المطحن . ويلمح لها عن رغباته الخيالية ولكنها تتجاهله وتشجعه في آن فينفحها بالهدايا الصغيرة التى يطيقها من اللبان والحنثيت والسكر ، وعند ذاك تقول له :

— الجوهرة غالية وأنت رجل على قد حالك !

فيقبض الفقير قلبه ولكن الجنون يبسطه فيقول :

— ربنا يقدرنا .

ويدرك لثوه أن الجميلة تحترف الحب ولكن ذلك لا يثنيه عن سعيه فإن جنون العشق يتسلط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختياراً أو مجالا للتردد .

وتقول له أم سعد :

— الأمر ليس يسيراً ، يوجد حراس لا تراهم ، وغاية ما أستطيعه أن أدلك على الطريق ..

وتمد له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنها ترددها بإباء ولا تقبل بأقل من عشرة قروش أو عشر أجر سنان في شهر كامل ! . وتقول له :

— أتعرف المعلم حلمبوحة ؟ .. قل له إنك حاضِر من طرفى ، إنه راعبها وولى أمرها وهو الذى جاء بها إلى حارتنا من المجهول ..

فيقول سنان بضيق :

— ظننتك متوصليننى بغير وسيط ..

— لا أملك إلا أن أدلك على الطريق ..

ويذهب سنان إلى حلمبوحة في دكانه الصغير الذى يبيع فيه الدخان

والمنزول . يجده كما يعهده عجوزا أعمش جاف الخلق فيحييه ويقول له
همسا :

— إني قادم من طرف أم سعد .

فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم :

— جنيه مصرى !

فيقول سنان بارتياح :

— إنه مبلغ جسم يا معلم ..

فيرض عنه قائلا :

— وفر نقودك واذهب لحالك ..

لا شيء يمكن أن يثنى سنان عن مطمحه . إنه يبيع خاتمه الفضى
الموروث عن أبيه بجنيه ويهبه للحليبوحة مسلما أمره للمقادر . يتفحص
الرجل الجنيه ، يدسه في جيبه ، ثم يقول لسنان :

— لم يبق إلا هريدى الحملأوى ، تعرفه ؟

يغوص قلب سنان في صدره ويسأله :

— ما شأنه ؟

— إنه خطيب البنت ، ولا يرضى بأقل من جنيتين ..

فيتأوه سنان قائلا :

— إنها ثروة ، ثم إنها سلسلة بلا نهاية ..

— هريدى ختام السلسلة ..

— ولكن من أين لى بالجنيتين ؟

— خذ نقودك واذهب ..

ويرد إليه الجنه بمحبة . يتناول سنان الجنه بقلب طافح بالياس ثم يمضى
بلا هدف . وتقوده قدماه إلى البوطة فيسكر حتى يقول لنفسه :
— سأبلغ منأى ولو طرت إليه فوق سحابة ..
ويذهب من توه إلى أم عlish بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح
أم على الداية فتقول له مستاءة :
— إنى لا أتعامل مع الزبائن فى حجرتى ..
فيرمى بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلى عنها إلا وهى جنة
هامدة ..

* * *

إنه يعى تماما ضرورة أن يهرب فى الحال قبل أن تكشف الجريمة . لا
يشك أن كثيرين رأوه وهو يتخبط فى الحارة ثم وهو يتسلل إلى بيت أم على
الداية . إنه يعى تماما ضرورة الهرب ولكنه لا يفكر إلا فى الحب .
ويذهب إلى المعلم حلمبوحة فينقده الجنه ثم يمضى إلى هريدى
الحملاوى بالجنهين فيصحبه الحملاوى إلى بيت أم سعد .

* * *

يقول الرواة إن سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت . وفى
نشوة الخمر ارتمى على قدميها فى هيام ، وما يدرى إلا وهو يركى من
الوجد . واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال :
— لقد قتلت ..

ولم تفهم المحبوبة كلمة ، ولم يقدم هو على الفعل .

وانطرح الزمن خارج وعيه حتى هل أول شعاع للضياء .
وارتفعت من الطريق جلبة ، ودقت الأرض أقدام ثقيلة ، فتلقى سنان
أول إشارة خفية ، واستسلم بأريحيه للمقادير ..

الحكاية رقم « ٣٣ »

مرت فترة بحارتنا يمكن أن تسمى بعصر زينب .
الأب يباع فاكهة ، والأم بياعة بيض ، وزينب آخر عنقود مثقل
بالذكور . وهى جميلة ، فلثة رائعة من الجمال ، وفى جمالها تتلخص
حكايتها .

فى طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدي ، فى صباها تألقت تباشير
الفتنة ، فى الشباب استوت آية من البهاء والأبهة .
ويقول زيدان الأب لزوجته :

— البنت يجب أن تحجب فى البيت .

فتوافق الأم كارهة إذ أنها تفضل بطبيعة الحال لو كان فى الإمكان أن
تسعى زينب لرزقها ..

ويتكالب الخطاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلاب ، وتقول الأم :

— من العدل أن يكون حظها فى قوة جمالها ..

لذلك ترفض يد ابن أختها سواق الكارو ، فتتمزق أواصر الأخوة ،
وتنشب معركة بين الأختين تنفرج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجب

ولا عن .

ويتقدم لها في وقت واحد تقريبا حسن « صبي طرايشي » وخليل « صبي جزار » فيجران إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين .

ولإذا بفراج الدرى المدرس يطلب يدها ، أفندى محترم وموظف حكومة ويعتبر بالقياس إلى بيئة زينب حلما من الأحلام . وتقول الأم : — هذا من نرحب به ..

ولكن على بياع القلل يعترض سبيل المدرس ذات يوم ويهمس في أذنه : — إن تكن تحب الحياة حقا فابعد عن زينب ..

ويستعين المدرس بقريب قوى من أهل التحرش والتحدى فيعتدى الرجل على بياع القلل ، ولكن بياع القلل يضطغنها في نفسه ويتربص لفراج أفندى ثم يفقأ عينه !

عند ذاك يجفل المحترمون من أبناء حارتنا إثارا للسلامة ولا يبقى إلا الحرافيش .

وتهتف الأم المغيظة :

— يا ميلة البخت ..

وتحتدم المنافسات ، وتعدد الاعتداءات ، وتساقط التهديدات ، ويلتزم آل زيدان الحياد التام خوفا من العدوان ، ورغم بلواهم وكرهم تلفحهم أنفاس الحاسدين وألسنتهم ، حتى يقول زيدان لبعض أصدقائه : — لقد حلت بنا نقمة اسمها الجمال !

وتتكرر الخناقات وتكثر الإصابات ، وتمضى زينب وأسرتها لعنة

مجسدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفية في الانتقام .
عم زيدان لا يجد فرصة ليتنفس في هدوء ، ويخاف أن يغدر غادر
بزينب نفسها ..

ويطلع صباح فلا تقف لآل زيدان على أثر . ويتنفسى الوجوم
والكدر . وأمنى بخيبة لا يدرى بها أحد . وبجزن أتساءل :
— ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء في حارتنا ؟

الحكاية رقم (٣٤)

هنية بنت علوانة الدلالة من بطلات الحب في حارتنا .
أتساءل كثيرا عن سر حبها لحمام صبي الخياط البلدى . إنه فتى سيمىء
الصورة والسمعة ، شرس الطباع ، تمكس عيناه نظرة تحد وعدوان ،
برتدى جلبابه على اللحم ويمضى حافى القدمين . ثم إن هنية بنت متعلمة ،
مكثت في الكتاب ثلاث سنوات ، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء
عم ، وأمها ميسورة الحال ، ووقت الغداء تفوح رائحة القلى من
مطبخهم .

وهنية ترفض يد حامد المراكيبى يباع المراكيب عندما يتقدم لخطبتها .
وتبكي الأم بحرارة وهى تحكى مأساتها لأمى :
— تصورى ، حامد المراكيبى الرجل الكامل صاحب القرش .
فتساءل أمى :

— كيف وبنتك عاقلة وحافظة كلام ربنا ؟
— قالوا لى إنه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت
الأضرحة ونذرت النذور .
ولكن هنية تصر على رفض يد حامد . وتغضب أمها وتلطمها على
وجهها وتصيح بها :

— تفضلين عليه المجرم ؟ ، بعدك ، ولكن مكتوب عليك الشقا .
ويتراجع حامد المراكيبى ويتلاشى ، ويبدأ حمام جادا فى التفكير فى
أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه . غير
أنه يتهم فى هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيقبض عليه ويزج فى
السجن عامين .

تبتهج علوانة الدلالة بالحل الذى جادت به السماء وتقول لهنية :
— أرايت ؟ ، سبحان الله الذى لا يعلو على برهانه برهان .
ولكن هنية تصر على رفض حامد المراكيبى وتفرق فى حزن عميق حتى
يشفق عليها الغاضبون . ويقول كثيرون إنه لا حيلة لها فى الحزن ، وإن حمام
لا يقتلع من قلبها بلا أثر . ولكنها تصر على الرفض حتى يمر العامان ويرجع
حمام إلى الحارة . وتدب الحياة من جديد فى هنية ويجن جنون أمها . ويلقى
حمام صعوبة فى العودة إلى عمله الأول أو الالتحاق بأى عمل آخر . ثم
يرى سارحا بلحمة رأس وطلبية ويتساعل كثيرون من أين جاء برأس
المال ، ولا يعلم إلا فيما بعد أن هنية هى التى أمدته بأسورة ذهبية .
وتثور علوانة ثورة عفيفة وتستعدى على ابنتها القريب والجار ، غير أن
هنية تعقد قرانها بحمام فى القسم وتحت حماية الشرطة .

وأشهد بأنها زيجة موفقة ، فهنية تشاركه في العمل وتدبره له بحكمة
يعجز عنها عقله المشتت حتى ينجح أو بالأحرى تنجح هي في فتح دكان
له ، أما الذكريات القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها أحد .

الحكاية رقم (٣٥)

في موسم القرافة نزور أحيانا حوشا غير بعيد من حوشنا . أرى رجلا
يقيم في حجرة المواسم إقامة دائمة كما يستدل من وجود الفراش والكنبة
والصوان . أسأل أمي عن هويته فتقول :
— ابن عمه أيك رضوان أفندى .
— لماذا يقيم في الحوش ؟

تتجاهل وقتها سؤالى ، وألاحظ خلو الحجرة من الرجل في عام تال ،
وأعلم أنه انتقل من الحجرة إلى القبر ، ثم أسمع قصته فيما بعد لمناسبة لا
أذكرها .

إسرة رضوان أفندى تتكون منه ومن حرمه ومن صبي وصبية . الأم
تشغف بالصبي على حين يشغف الأب بالصبية . يناهز الأخوان البلوغ
فيمارس الأخ قوته في معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتى تضيق به
وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه ، أو على قول
أمي :

— سكن الشيطان بينهما !

يتطور النزاع إلى خصام أغبر ، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر ، حتى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنى كل للآخر الهلاك والفناء جهرا وبلا تحفظ .

وفي ختام المرحلة الثانوية يمرض الشاب بالسل ، ثم يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستة أشهر . موت قاس مطوى على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الأم وتلاشت آمالها في الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم ، ويقول رضوان لأبي :

— إنها عملية نشل ، والخجل يمنعني من مواجهة أمه .

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض أخته بنفس المرض .

و ذات ليلة ينجبنا رضوان افندى وهو يجرى حافيا من أقصى الحارة ، مشعث الشعر دامى العينين فتهب الأسرة نحوه متسائلة وهى على يقين بما تتساءل عنه . يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفأ فيهما نور الحياة :

— انتهى كل شيء !

يصفى الرجل بعد ذلك تجارته ، يهجر بيته إلى حوش القرافة ويقع هناك على مقربة من قبر الفقيد . وتصر حياته على الامتداد حتى يوافيه الأجل .

أما الأم فهي تواظب على زيارتنا ، وأراها وأتصل بها وأنا صغير وهى عجوز . يبدو أنها لا تذكر الماضى ، وتحب التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت . أتذكر جلستها وراء الأوراق المفندة وتكومى أمامها فى تشوف ، وهى تشير إلى صورة وتقول :

- فى سكتك واحدة ليست من دمك .
وتبتسم كثيرا فأقول لأمى :
— تيزة وليدة خفيفة ونحب الضحك .
فتتمم أمى :
— ربنا معها ومع كل جريح .

الحكاية رقم « ٣٦ »

فى إحدى ليالى الأرق أرى من نافذتى هذا المنظر .
أرى شبح رجل يترنح ، يتلاطم مع الجدران ، يتعثر فيقع ثم يقوم
بمشقة ، تندلق من فيه السائب أغنية « أنا أبله كنت هبلة » ثم يندفع فاقد
التوازن كأنه ثور يتوثب للنطح ، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح
كالقتيل .
يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم — لعله فران — ليطرحه على لوح
عجين ثم يتعاون مع آخرين على رفعه ويمضون به ..
يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنح ويتعثر ويقوم ويقع وإذا
بالسكران الأول يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر :
— إخص ، حقيقة إنك مرة ، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك
عليك الناس ؟ . سفخص .
فى زمن متأخر ، وفى ظروف غاية فى الجدية ، يعاودنى ذلك المنظر
حاملًا إلى معانى جديدة لم تخطر لى على بال من قبل حين رؤيته .

الحكاية رقم (٣٧)

عم ينسون الصرمانى كهل لا تشوب سمعته شائبة . يموت ابنه رمضان
عقب مرض لم يمهل طويلا . يحزن الكهل كالموقع ولكنه يقدم على فعل
غريب يجعل منه أحدى الحارة قبل أن تجف دموعه . ما ندرى إلا وهو
يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفى ، يعقد زواجه عليها ولما يمر على
الوفاة شهر واحد ! هل جن الرجل ؟

وعلى فرض جنونه ألا يسعه أن ينتظر عاما أو بعض عام ؟
وكيف توافق دليلة وفارق السن بينهما أكثر من أربعين عاما ؟
ولكن الخبر حقيقة لا شك فيها ، وها هى دليلة تنتقل إلى بيت عم
ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية أسرته .

وتتلوى الألسنة هامسة ، كان شئ بين المرحوم رمضان ودليلة ،
يسره الزواج الوشيك ، والثقة بغد لم يأت ، وتدخل الموت فقلب
الميزان ، وتبدد الأمان ، فسقطت دليلة فى مأزق بلا حماية ولا أمل .
وتقف أمها على السر ، تفضى به إلى أم رمضان ، وترمي به هذه على
زوجها المهزون ، مصيبة جديدة ، مصيبة بكل معنى الكلمة ، ولكن لا
يمكن تجاهلها بحال ، البنت فى مأزق ، الجانى هو الابن الذى يسأل له
الرحمة ، ويفكر ويفكر ثم يعزم ثم يقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا .
تصبح دليلة زوجته ، وتلد فى بيته وليدها .

وثمة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء .
وآخرون فى غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون .
أما غواة السخرية فيشيرون إليه ثم يتهامسون :
— هذا هو أبو حفيده .

الحكاية رقم « ٣٨ »

وأنا ألعب فى الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .
أكثر من صوت يتساءل :
— خير إن شاء الله .
فيبشرنا أحدهم قائلا :
— قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل .
يتناهى الخبر إلى فتحة قيسون وهى تغسل ملابس فى طست أمام
مسكنها . تنتثر رائبة المالدوغة ، تفك عقدة جلبابها ، تربط منديلها
حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة ، تتناول ملاءتها من فوق حجر
فتتلفع بها بسرعة مجنونة محرقة طرفيها كجناحي طائر كاسر ، تلوح
بقبضتها مهددة ، ترجع رأسها إلى الوراء متوثبة ثم تندفع فى طريقها على
يقين من هدفها وهى تصيح :
— والنبي ومن نبي لأسود حظه وأطين عيشته وأشوه وجهه حتى

أن أمه نفسها لن تعرفه .
وتمضى مخلقة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة فى الاستطلاع
وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة .

الحكاية رقم « ٣٩ »

صبرى الجوانى يثير دائما عاصفة من التساؤلات .
من بيعة كادحة ، يعمل فى دكان خردوات ، ثم يندب للجولان بهشى
الخردوات فى الأحياء المجاورة . يتغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير ،
تتحسن صحته ويكتسب بحلة النعمة الزاهية . ينتقل إلى مسكن جديد ،
يرى وهو راجع حاملا ورقة لحمه وفاكهة الموسم ، يجلس مساء فى المقهى
يدخن البورى ويحتسى الزنجبيل ، ويقضى بعض السهرات فى غرزة
المواويل .

ويتزوج من بنت ناس ، ويرتدى البدلة بدلا من الجلباب ، وتنطق
ملاحه بالرضى والثقة والأمان . وفى ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر
ويرقص ويغنى ويبدى من فنون الانبساط ما لا يتصوره عقل .
وعقب الزفة يغادر الفرح ليرجع إلى بيته ولكنه لا يرجع إلى بيته .
يختفى فلا يقف له على أثر أو خبر .

الحكاية رقم « ٤٠ »

يجلس وراء نافذة مصفحة بالقضبان ، يحملق في لا شيء ، تتحجر في عينيه نظرة لا معنى لها ، رأسه صغير أصلع ، يغمغم بين آن وآن :

— أين أنت يا حبيبتي !

نرمقه من بعيد بحب استطلاع ، تتجنب إثارته كما نبه علينا ، نتهامس :

— انظر إلى عينيه !

— ماذا يعنى ؟

— إنه مجنون .

كان يرى قديما هائما صامتا ، يتابع امرأة محجبة باهتمام ، يعترض طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة .

ويقال إنه رأى في حلم بنتا جميلة شغف بها أيما شغف ، وأن الحلم يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها .

وفقد الصبر فيأخذ في التهجم على النساء ويهم بجذب النقاب ، ويتعرض بذلك للزجر والضرب والعنف . ويؤمن أهله بأنه ممسوس فيطوفون به على الأضرحة والشيخ ليبس ولكنه لا ييشرب بشقاء .

ويقولون لأبيه :

— المستشفى لأمثاله وسلم للمقادير .

ولكنه يحبسه في الحجرة ويصفح النافذة بالقضبان .



.. وأن الحلم يتكرر ، وأنه يمضى باحثا عنها

ويقبع نهاره وراء النافذة ، يحملق فى لا شىء ، ويتقدم فى السن ،
ويغمغم من آن لآن :
— أين أنت يا حبيبتى ؟

الحكاية رقم « ٤١ »

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناي . لا أتصور أن يوجد
بين البشر من هو أطول أو أعرض منه . معدنة ، يتحسس طريقه بنبوت
رهيب ، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان ، يقول أهل حارتنا إنه
من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا .
وهو الشحاذ الوحيد فى حارتنا فمنذ احترق التسول لم يتجرأ شحاذ
آخر على ترديد « لله يا محسنين » .
يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو ، معتمدا على نبوته ، يصمت
طويلا ، ينفجر بصوت كالرعد « يا أكرم من سئل » ، يجيئه الطعام فى
أوقاته ، تتراكم اللاليم فى جيبه ، يتبادل التحيات مع السابلة .
وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه
مثار للابتسام ، ولكن بلا حنق أو حقد ، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه
أنه لا يستثمر قوته فى العدوان .
ويشاء الحظ أن أشهد معركة الكبرى .
ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة — شحاذ ضرير أيضا — من القبو

راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر ، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد
ليستريح من عناء يوم مظفر .

ها هما الشحاذاان الضريران يجلسان على جانبي مدخل القبو كأنهما
حارسان . ويتلقى القرد بأذنيه الحادثين رسائل خفية من حركات شفتي
زلومة ، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية ، يتجه رأسه نحو
الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز .

ويهدف زلومة في غبطة :

— يا حسين يا حبيب النبي يا سيد الشهداء .. مدد .

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة :

— من ؟

فيجيبه زلومة ببراعة :

— سائل على وجه الكريم !

— وماذا جاء بك إلى هنا يا بن الزانية ؟

فيسأل زلومة بمحدة :

— أملكك أرض الله ؟

— ألا تراني ؟

— إنى أرى بنور القلب .

فيتتم إبراهيم القرد :

— عظيم .

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ،
لا أدري ماذا يفعل به ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث .

ويتجمعهم أناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، ييدر من البعض كلمات غاضبة :

— افراء وظلم .

— أنت وحش .

— أنت لا تخاف الله !

ويصيح إبراهيم القرد :

— عليكم اللعنات .

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة . كأنما هرس له دملا . يحن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء ، ينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تحتاج الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف .

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضريع ، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه .

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود ، عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللعب ، إنه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان في الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق

أننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن .
ويصبح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر :
— يا قرد . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك فى الحال .
ولكن القرد يتأدى فى التحدى منتشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه
الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال
المطافئ .

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوة التى لا مفر منها على
القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه معرّجا منهزما حائقا قاذفا
بسيل من السباب المقدع ، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض
عليه الجنود بالأغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم بينائه
الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حيويا وتحيات حارة .. ، فيواصل
حياته السابقة متعمقا عند مدخل القبر مثل أسطورة .

الحكاية رقم « ٤٢ »

البرجاوى منهمك فى عمله بدكان الطعمية .
يمر به الكفراوى فيطلب منه شربة ماء . تملك البرجاوى نزوة مزاح
فيشير إلى حوض الماء الذى منه تسقى الحمير والبغال ويقول :
— إليك الحوض فاشرب .
ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوى ويصيح به :
— أنت جبان وقليل الأدب .
فيغضب البرجاوى بدوره ويصيح به :
— ملعون أبوك وأجدادك !
وتتبادل قذائف من السباب ويتجمع مشاهدون من أعمار متفاوتة .
ويسعى إمام الجامع لفض الموقف ولكن أحدا لا يلقي إليه أذنا فينسحب
مستاء .
ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوى طوبة يقذف بها الدكان فتحطم
المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف ، ويفقد البرجاوى أعصابه
فيقبض على يد طاسة الطعمية ثم ينقض على الكفراوى فيضرب بها وجهه
ورأسه ولا يتركة إلا جثة هامدة .
ويهرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوى وأهل البرجاوى فيخوضون
معركة دامية يستعمل فيها الطوب والعصى والسكاكين ، فيقتل من يقتل

وينتهي مصير الباقي إلى السجون .
وأعيش عمرا فلا أرى في دارى البرجاوى والكفراوى إلا نساء وبنات
يسعين فى السواد ، يحزننى ذلك بطبيعة الحال وأعلق عليه بما يناسبه .
غير أن كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكرىات الغضبات الهادرة
والملاحم الدموية ، ويتشرفون جهرا بالسجون والمشاق .

الحكاية رقم « ٤٣ »

حواش العداد من أصحاب المزاج فى حارتنا .
فى ليلة عيد يقرر أن يحبى سهرة كبرى فى بيته . يلبى دعوته كثيرون من
الصحاب والمعلمين والمطربين والعوالم والراقصات . وتلعب الأوتار
وتتهادى الأنغام فى جو من العريضة يهيج أشواق المحرومين ويثير استهجان
أهل التقوى والورع .

ويتواصل الطرب والعريضة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم
عميق ..

وعند ضحى اليوم التالى ، والحارة ثملة بأفراح العيد ، تصدر عن بيت
حواش العداد ضجة غريبة وصيحات فزع كأن صاعقة انقضت عليه .
ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون ، ثم تنتشر أخبار لم يسمع بمثلها
من قبل .

يقول الرواة إن الداعى والمدعوين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين

في عالم خراب شامل لا يتصور ولا يوصف . إنهم يتذكرون كيف أن النوم سرقهم من بين أحضان السررات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا أعينهم على عالم لا يرى إلا في أعقاب زلزال مدمر . فالأثاث النفيس قد تحطم إربا ، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتت أكواما ونثارا ، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تهتكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفا ، والقوارير والكنوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسرت وانتشر كسارها ، كذلك المصاييح والتحف وحتى السجاد والأبسطة والملابس . ماذا حدث ، لماذا حدث ، كيف حدث ١١٩ .

وتحضر الشرطة فتعابن وتسجل وتستجوب ولكن التحقيق لا يسفر عن شيء . ويقال هنا وهناك إن خلافا دب بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبق على شيء ، وأن رجالا من ذوى الجاه توسطوا عند المأمور فغطى على الحادث بالحفظ ، ولكن لم يسمع أن أحدا من المدعويين جرح جرحا عميقا أو أصيب بعاهة .

ويقال أيضا إن أعداء لحواش العداد دسوا لهم منوما حتى ناموا ثم دمروا كل شيء بتصميم شامل ودقة وحشية بالغة ، ولكن ألم يكن من المنطق أكثر أن يوجهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم ٩٩ . وعلى ذلك فلم يكن يصدق أحد هذا القول .

ويذاع كلام أيضا عن أن ما حاق ببيت حواش إنما جاء نتيجة لغضب من الله استحقه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأن الداعى والمدعويين هم الذين خربوا دارهم وهم ذاهلون في غيبوبة ثم تداعوا نياما شبه أموات . وهذا تفسير يلقي عادة أذنا مصغية في حارتنا ، ومثله ما قيل عن دور

العفاريت في الأمر نتيجة لنذر نذره حواش ولم يوفه .
وتمر أيام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حواش
العداد حتى يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ،

الحكاية رقم « ٤٤ »

هذه حكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده .
كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدي .
صعد الشيخ إلى شرفة المئذنة ليؤذن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن
البيت المواجه للزاوية ، مد بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلا
يطبق يده على فيها لمنعها من الاستغاثه ، ثم يجذبها إلى الداخل تحت المصباح
الغازي المضيء ثم ينهال عليها ضربا بشيء في يده حتى تهاوت ساقطة .
عرف المرأة كما عرف الرجل ، أما المرأة فهي ست سكينه أرملة صاحب
مقل ، وأما الرجل فهو المعلم محمد الزمر صاحب وكالة خشب . تسمر
الشيخ أمل المهدي في مكانه متدثرا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب
حتى أغلق المعلم النافذة . وراح يتمتم :
— لقد قضى على المرأة .

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤدي الأذان .
جرمة قتل ، ماذا أوجد المعلم في هذه الساعة بيت الست ؟ ، توجد

أكثر من جريمة ، ارحمنا يارب السماوات والأرض !
وهبط السلم الخلزوني بمشقة ثم جلس على الأرض راكنا إلى المنبر
ظهره . وجاء أوائل المصلين فهاهم منظره وسأله بعضهم :
— لم لم نسمع صوتك يا شيخ أمل ؟
فأجاب لاهثا :

— بى مرض والله أعلم .
وكان المعلم محمد الزمر هو من تبرع ببناء الزاوية ، وهو الذى اختار
الشيخ إماما لها ورتب له أجره ، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه :
— يا له من امتحان عسير من رب العالمين !
ورقد الشيخ فى بيته ثلاثة أيام ولم يفتح فمه .
وانتشرت أنباء الجريمة فى الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست
سكينة وجدت قتيلة فى حجرة نومها وهى يجلباب النوم . وبدأ التحقيق ،
واستدعى فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدى .
سأله المحقق :

— ألم تسمع صرخة أو صوتا ملفتا للسمع وأنت تؤذن ؟ .
فأجاب :
— كنت مريضا فلم أؤذن تلك الليلة ..
— أنت جاز للقتيل ألا تعرف شيئا عن علاقتها بأحد ؟
— كانت سيدة فاضلة ولا علم لى بشيء .
وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه : « إني لمن الهالكين » .
وجعل يبكى بشدة من الحزن والعجز .

واكتشف فى أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحلى فحامت الشبهات حول صبى كواء كان يتردد على البيت وفتش مسكنه فعثر على الحلى وبذلك وجهت إلى الشاب تهمة القتل .

وبدا ذلك كله منطقيا إلا عند الشيخ أمل ، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنونى ، مضى يحترق فى صميم أعماقه وينهار عصبيا بعد عصب . كان ورعا تقيا ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه .

ومن شدة القلق والحزن تهدم ودب الضعف فى أعصابه . والتقى ذات يوم بالمعلم محمد الزمر أمام السبيل القديم فشد على يده كالعادة ، وعند ذاك انتفض كأنما مس ثعبانا ، وحدث فيه بقوة غريبة حتى تساءل المعلم :

— مالك يا شيخ أمل ؟

فوجد نفسه يقول :

— لقد رآك الله !

فدهش الرجل وسأله :

— ماذا تعنى ؟ .. أنت مريض ؟ .

فهتف به :

— اعترف بجريمتك يا قاتل !

ثم هروا إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج . لبث فى سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس . وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره فى شرفة المئذنة . ولكن أى ظهور كان ؟ . تطلعت إليه الأبصار بذهول وراحوا يقولون :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ..
— الرجل الطيب عار تماما .
— يا شيخ أمل وحد الله !
ومضى يدور في الشرفة متبخترا ويغنى بصوت متحشرج :
أما انت مش قد الهوى بس تعشق ليـه ؟

الحكاية رقم (٤٥)

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف . متزوج ، أب لعشرة ،
في الأربعين من عمره . يتميز بقوة شديدة وملاحم خشنة وفقر مدقع .
يتواصل عمله من الضحى حتى منتصف الليل ، لا يعرف الراحة كما لا
يعرف الشبع . يحتقن بالحسرات إذا رأى الناعمين في المقهى أو تطايرت إلى
أنفه رائحة التقلية . وهو يغبط حمار الطاحونة في السرجة كما يغبط العطار
أو صاحب وكالة الخشب .

ويقول ذات يوم لسيدنا إمام الجامع :
— الله يخلق الرزق ولكنه ينسى أبنائى .

فيغضب الإمام ويصيح به :

— لقد بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطا على
بطنه حجرا ليسكن به جوعه ، اذهب عليك اللعنة .

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشق الظلماء
فيتهادى إليه صوت هامس ناعم يقول :

— يا عم عاشور !

يتوقف متلفتاً أمام نافذة مغلقة في دور أرضى بيت الست فضيلة
الأرملة المستحقة في وقف الشنانيرى ، ويتساءل :

— من ينادى ؟

فيجيبه الصوت :

— أريد منك خدمة فادخل .

المكان مظلم ، حتى شبح التمساح المنحط فوق الباب لا يرى . يمرق من
الباب ويمضى نحو المنظرة مهتدياً بضوء يلوح في شراعة بابها . يرى السيدة
فضيلة متربعة على كتبة تركية فيقف بين يديها ناشراً في المكان رائحة عرقه
الفظة النافذة .

— أريد زيتاً وكسبة ..

تقولها ببلاهة ، بلاهة تفضح مكرها ساذجا ، وتنضح بشرتها باعتراف
قرمزى ، ويلمح في جفניה المسبلين معجزة الرضى والاستسلام ، ولكنه
ليس الاستسلام الذى تبادر إلى خياله ، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبرة ،
ويغادرها بعد أن يوقن بأنها تريد في الحلال !

ويلبث دهرًا لا يصدق ، يتوهم أنه يتعامل مع حلم من الأحلام ،
ولكنه يتزوج من الأرملة الغنية ، ويجرى ذكره في الحارة نادرة من النوادر
ومثالا من الأمثلة . لا يبالي طبعاً أن يترك لها العصمة في يدها ، ويترك عمله

بالسرجة كما شرطت عليه ، ثم يطالع الناس في زى جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم . وبمشيئة ست فضيلة لا يطلق زوجته القديمة ، وترتب لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من أعماق قلوبهم . هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة ، فيشبع ويسعد .

* * *

وست فضيلة سيدة جميلة وكاملة ، تحبه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد .

وهى لا تفرط فى شىء منه . ناعمة مهذبة وفيه ولكنها لا تفرط فى قيراط منه . ومنذ اللحظة الأولى يشعر عاشور بأنها حريصة على ملكيته ملكية كاملة، ظاهره وباطنه، أصله وظله. حتى فكره وأحلامه، فهو يعيش بين يديها ، فى الحديقة أو المنظرة ، وحتى الساعة التى يقضيها فى المقهى يرى شبحها وراء خصاص النافذة يطل عليه ، ولكنه ينعم رغم كل شىء بالحب والراحة والشبع .

* * *

وعندما يعتاد عاشور الطيبات ، عندما تطوى العادة معجزات الهناء ، يتسلل إلى روحه التأؤب . يتوق إلى ساعة يخلو فيها إلى نفسه ، يهيم على وجهه ، يمازح صديقا ، يرتكب حماقة بريئة ، ولكنه يشعر دواما بأنه مراقب ، خاضع ، مطارد . الحق أنه لا ينقصه شىء ولكنه سجين . ثمة أغلال من حرير تحز عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة ، ويتدفق فى روحه التأؤب .

ويجد الزمن طويلا ، ويجد الزمن ثقيلًا ، ويجد الزمن عدوا .



مثيرة ومغرية ، وجادة ومحتشمة في الوقت نفسه

(حكايات حارتنا)

ويقول لها ذات يوم :

— افتحي لي دكانا .

فتقول له :

— لديك ما تشتهي النفس ، ماذا ينقصك ؟

فيقول متشكيا :

— كل رجل يعمل حتى الشحاذون .

ويوقن بأنها تخاف أن يستغنى عنها بالعمل أو يستقل عنها بالنجاح ،
وهو لا يريد من العمل إلا أن يهيء له قدرا من الحرية بعيدا عن نظرتها
المستقرة .

* * *

ويرتد عاشور الدنف إلى التجهم والاحتجاج .

ويردد لسانه ألفاظ التدمير والظلم ونواذرهما .

ويغلي غضبه ويفور فيقرر أن يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء
البيت السعيد .

ويتبادى في غضبه فيلطمهما على خدها الأسيل ، فتطرده من الجنة
فيذهب متحديا ..

* * *

ويتعرض في تشرده لمتاعب كثيرة ، يلتقط رزقه بعناء ، يتورط في
أعمال مريبة ، يجلد مرة في القسم .

وتحن الست إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها ، ولكنه يرفض ، يصر

على الرفض ، يمضي في سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر .
يستحق عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد في حارتنا .

الحكاية رقم (٤٦)

كنت أعود سعد الجبلى في مرضه الأخير عندما ترامت إلى الحجرة من
الحاكى أغنية :

ما هو انت اللى جايه لروحك بإيدك يا قلبى
فتهد سعد وابتسم وتغم :

— إى والله ، بإيدك يا قلبى .

وتبادلنا نظرة نطقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرات والآلام .

* * *

سعد الجبلى كاتب حسابات بـدكان الرهونات بحارتنا . طموح بعيد
الأحلام فيبيع أرضا يمتلكها ويستقيل من عمله ثم يتاجر فى الروائس
العطرية . يربح أرباحا كثيرة ، يصير من أثرياء الحارة ، ولكنه لا يتمتع فى
الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية .

كل ليلة يدعو إلى بيته نخبة من أصحاب ، يقدم الطعام والشراب ،
يلعب بأوتار العود ، يغنى من له صوت مقبول ، تمتد السهرة حتى
منتصف الليل .

ثم يخيب تقديره فى صفقة كبيرة ، لا يجد لديه من المدخر ما يسد به العجز ، يشهر إفلاسه ..

يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء وأخوات على باب الله .
تمر به أيام قاسية شديدة ، تؤذى صحته وكبرياه معا ، ولكنه يبدو دائما رجلا قويا راسخ الأركان . يرجع إلى عمله الأصل فى دكان الرهونات ، يعطى دروسا خصوصية فى الحساب ، يعيش عيشة التقشف .

وإيمانه قوى عميق .

أجل يشرب كثيرا ، لا يلزم بالفرائض ، ولكنه مؤمن حقا ، تعتقد بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه لا مفر من المكتوب .

ولا يقعه عن العمل إلا المرض فيلزم الفراش .

وأفكر بحال أسرته فيملؤنى الأمل .

وأشير إلى من يلعب فى الحجرة من الصغار وأقول :

— ربنا يشفيك من أجل هؤلاء !

فيقول باستسلام :

— أما الصحة فقد انتهت .

ثم يستطرد بثقة :

— أما الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول :

— الخوف كفر بالله ، أعوذ بالله من الخوف .

ثم بنيرة ساخرة :

— أحسبت أن حياقي أطعمتهم حتى تخاف أن يجيعهم موتى ؟

أتمعن إيمانه منبها من قوته .

غير أن سعد الجبلى لا ينسى الدعابة حتى وهو فى أعماق المحنة ، فما أن

يردد الحكاكي :

ما هو انت الى جايه لروحك بإيدك يا قلبى

حتى يتمم باسمما :

— إى والله ، بإيدك يا قلبى ..

الحكاية رقم (٤٧)

وشلبى الألايلى له حكاية تستحق الرثاء .

لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن مميز فى حديثه هو الإعجاب بأبيه .

والفخر بالآباء شعار مألوف فى حارتنا ولكن المغالاة فيه لا تخلو من دلالة

ولا يسلم على المدى من تهكم. وأبوه كان كاتباً فى دكان الخردوات، وكاننا

طويلا عريضا ، والرجال يقيمون بالطول والعرض فى حارتنا .

يقول لى شلبى وهو يتهد :

— طالما رأيت أى بعينى طفل أو من خلال عينى أمى أيضا !

فأقول له :

— هذا حال كثيرين منا .

— ولكن الطفل يكبر ثم يعمل عادة في حرفة أيّنه فيتسنى له أن يراه على حقيقته أما أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعلّمي فظل أيّ في خيالي أسطورة .

— أيّ أسطورة يا شلبي ؟

— أسطورة الجلال والثراء !

ثم يواصل بعد صمت قصير :

— ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب ..

— عالم غريب ؟

— لم يترك مليما واحدا ، كانت صدمة ، وقلت إنه الكرم قد أهلك ثروته ..

ويمضي في قصته أو في اعترافه فيقول إنه توظف ، وطمح ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال ، وأراد أن يزكي نفسه عنده فأخبره أنه ابن الألبى ..

— ودهمني الرفض ، تحرّمت عن السبب بإلحاح شديد حتى عثرت عليه في ذكريات أيّ !

— هكذا ؟

— تصور حالي إن استطعت .

ويجرى لاهنا وراء مزيد من التحريات ينبش بها قبر الراحل فتتكشف له حقائق مريرة خافية ، أخطرها بلا شك اتّهامه في شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عاما . وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتباً عنده لصداقة

قديمة بينهما .

شلبى الألابلى يجتر همومه وحده ، حتى أمه لا تدرى شيئا ، وهو
يفشى أسزاره الدفينة لاليجد شريكايته هم ، ولكن لتوهمه أن سيرة أبيه
أصبحت نادرة على كل لسان .

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارا قاسية مناقضة فى حياته ، فها هو يلتزم
بحياة مستقيمة نقية بل مثالية فى عمله وحارته . وها هو يتحرر بالفضيحة
من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين . ويعدل
عن طموحه إلى الزواج الممتاز ، وينتأثر على التنويه بآثار أبيه ..

ويقول لى مرة بصراحة صلبة :

— أهم شيء فى هذه الدنيا أن نعرف الحقيقة ..

ويغمغم بثقة وأسى معا :

— الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ..

الحكاية رقم (٤٨)

الأب موظف حكومى صغير وذاك أمر — على أى حال — نادر فى حارتنا . لذلك ينشأ الابن — صقر الموازنى — محسودا بين أقرانه . ولكنه يقول لى ذات يوم :

— لو كان أبى صعلوكا ما عرفت المم أو الغم ..

ويتوظف صقر مثل أبیه . وبعد عام من توظيفه يتوفى أبوه موظفا صغيرا فقيرا ، لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمة وأختين فى سن الزواج وكآبة ، كما يورثه أيضا تقاليد راسخة تتعلق بالكرامة وتطلعات جامحة نحو الحياة الجميلة ..

وأكثرية النساء فى حارتنا يرتقن ، أما فى أسرة الموازنى وأمثالها فمقضى عليهن بالانتظار ، واجترار الأحلام ، ومقضى على صقر وحده أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء وكلبة .

وتمضى الحياة ثقيلة مغلفة النوافذ ، ولا فرجة له إلا المقهى حتى منتصف الليل .

ويجد راحته فى الشكوى فيقول :

— لن تتزوج أختاى أبدا ، فنحن لا نرضى بالصعاليك وأولاد الناس لا يرضون بنا ، ومن ثم فلن يتاح لى الزواج أبدا .
أسرة تعانى الأشواق والحرمان ، حتى الأم والعمة لم يجاوزا الخمسين .

وصقر شاب مستقيم رغم حيويته ، ذو استعداد شديد للحياة الزوجية
ويجن لها حينئذ :

— بيت صغير وزوجة وأبناء ، تلك هي الجنة !
ويتنهد وتذوب نظراته حسرة وأحلاما .

* * *

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر في صفحة وجهه الشحوب
والشرود ، وبمضى الأيام يتفجر الحرمان سخطا على الأهل والنفس
والناس ، ثم ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة .
والنساء مجبرات على البقاء في البيت — إلا لضرورة — منعا للقليل
والقال ، تحبسهن التقاليد ، يجمعهن الحرمان ، يعذبن الفراغ ، يتسلين
بالنقار .

أسرة في صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس ، ونضال خفى مع
حارسها الذى لا يقل عنها بأسا وعذابا .
حتى الكلبة تضطرب في جنبات البيت مختنقة ، ممنوعة من الانطلاق
خوفا عليها من القذارة ، تلاعب الضيف بعنف ، تنقض على ساقه تتمسح
بها ، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى ..

* * *

ويتقدم العمر ، صقر يغط في عزوبته ، وهن يذبلن ويغصن في الماء ،
ويتسريل الجو بالقتامة . والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما
يستوجب من ازدراء ، لا علة واضحة لذلك ، ربما لأنه يصبح مثالا
للإذعان ، والانحناء حيال المصير المحتوم ، ومرآة للاصطلاحات

والأساليب النسوية المقتبسة من البيت .
ويوما أرى كلبته في الطريق وقد تدلت بطنها وانتفخت فأرمقها
بابتسام وإعجاب :
الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة .
أما صقر فبات يمحى أسرته ، ويقول عنها :
— أسرة لا تعرف الموت ، كما لا تعرف الحياة ..

الحكاية رقم « ٤٩ »

أمنية كل صغير في حارتنا أن يطوف به في منامه زائر الليل .
إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيئة تستقر في القلوب
البريئة . في ليالى المواسم الأعياد يقولون لنا :
— استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم
فربما أسعدك الحظ بمجيء زائر الليل ليحقق لك أمنيك ..
وتتابع تمنياتي خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهالات يفرها
القلب بين يدي زائر الليل ..
— يا زائر الليل أغلق الكتاب وخذ سيدنا .
— يا زائر الليل افتح لى باب التكية واملاً حجري بالتوت .
يا زائر الليل جدد مبانى حارتنا القديمة .
يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت .

وفي صباى شهدت موكبا فحما يشق حارتنا يتوسطه رجل بالغ
الروعة . اكتظت الحارة بالرجال وسدت النوافذ بالنساء ، جلجلت
الزغاريد والهماتفات ، صدحت المزامير والطبول .
زار الدكاكين دكانا دكانا ، والوكالة والسرجة والفرن والحمام
والكتاب والمدرسة والسبيل الأثرى والقبو والزاوية والساحات ، حتى
البوطة والغرزة والقرافة طاف بها .

بهرنى منظره فانبعثت في قلبي فرحة لا حدود لها . وانتفض
وجداني عن عقيدة راسخة « إن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل » وأنه
جاء أخيرا استجابة لابتهاالاتي في هدأة الليل .

وهتفت بصوتي الرفيع الذى لم يناهز البلوغ :

— ليحيى زائر الليل !

وحدث ما لم أتوقعه أبدا ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم
كأنما اندلق في أفواههم عصير الليمون المالح . وقرص إمام الزاوية أذنى
وصاح بى :

— يا لك من ولد قليل الأدب !

وأمر صاحب الوكالة أحد خفراءه قائلا :

— أبعد هذا الولد الشقى ..

ودفعتنى الأيدى إلى بيتى وأنا من القهر والمهانة في نهاية .

وجلست واجما محزونا دامع العينين حتى قال لى ألى :

— إنك أحق ، أنسيت أن زائر الليل لا يجىء إلا في المنام ؟!

الحكاية رقم « ٥٠ »

فى زمن مضى لم أدرك منه إلا ذيله كانت الفتونة هى القوة الجوهرية فى حارتنا . هى السلطة ، هى النظام ، هى الدفاع ، هى الهجوم ، هى الكرامة ، هى الذل ، هى السعادة ، وهى العذاب .. جعلص الدنانيرى فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيرا فى حياة حارتنا . يجلس فى المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنیان ضخّم . وأنظر إليه بانهار فيشدنى أى من يدى قائلا :

— سر فى حالك يا مجنون .

وأسأل أى :

— أهو أقوى من عنتره ؟

فيقول باسمّا :

— عنتره حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان ..

وهو عملاق مترامى الأطراف طولا وعرضا ، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه فى حجم عجيزة ست أم زكى ، يتأيل فوق صهوة حصانه كالحمل ، ولكنه سريع الانقضاض كالريخ ، ويلعب بالنبوت فى رشاقة الحواة ، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه .

لا يسمع صوته إلا مزجرا أو هادرا أو صارخا ، ودائما قاذفا سيلا من الشتائم . يخاطب أحباءه بيا ابن كذا وكذا ، يسب الدين وهو ذاهب

للصلاة أو راجع منها . لا يرى باسمها أو هاشا حتى وهو يتلقى الإناءات ويصغى إلى الملقى ، يستوى في ذلك عنده صاحب الوكالة وحمودة القواد ، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضبط أو يكشف عن عورته !

يعجز مرة أحد التجار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعا ولكنه لا يقبل فيضطر الرجل إلى البقاء في بيته مع الحريم حتى يجيئه الفرج . ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عاريا . يتوسل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجههم متوثب ينتظر تنفيذ أمره . ويضطر الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعة قطعة وهو يبكي . يتوقف عندما لم يبق إلا السروال فيزجر الدنانيرى فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجرى نحو مسكنه مشيعا بقهقهات العصابة .

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن إجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوجها ، وهو كثير الزواج والطلاق ، ولا يجزأ أحد على الزواج من إحدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن . ويمرض يوما فيلازم الفراش أسبوعا ، ويخبره أحد قراء الغيب بأن ما أصابه إنما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه ، فلما يبرأ من مرضه يأمر بالاحتفال أحد بعيد الفطر المبارك ، حتى زيارة المقابر حرمت علينا ، وتم أيام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامته وبغشانا ما يشبه الحداد .

أيامه أيام رعب وجبن وذل ونفاق ، أيام الأشباح والأناث المكتومة ،
أيام الشياطين والأساطير المخزية ، أيام التعاسة واليأس والطرق المسدودة .
ولكنه يرعب أيضا الحارات المجاورة ، ويسحق فتوات الحسينية
والعطوف والدراسة ، فتمضى زفة العريس من حارتنا بلا حراسة ،
ويتجنب الناس وقع خطانا اتقاء لتجهم المقادر .

* * *

ويقدر لهذا الجبل الشاوخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة .
يدعى إلى فرح في الدرب الأحمر ، وعند مدخل البيت يتقدم منه غلام
ويقول له :

— يا عم .

فينظر إليه من عل باستغراب ويسأله :

— ماذا تريد يا ولد ؟

وبسرعة البرق .

أجل بسرعة البرق يخرج من جلبابه سكيناً فيطعنه في أعلى الكرش ثم
يشد السكين وكأنه يتعلق بها حتى المθάثة !
بسرعة البرق وقع ذلك .

ويتجمد جعلص الدنانيرى كأنما دهمه نوم ، وتنحط معدته خارج
جسمه ، ثم يتهاوى كعمارة بكل ما يتضمن من قوة وإقدام ووحشية وثقة
في النفس والدنيا .

ويتبين أن الغلام ابن أحد ضحاياهم من كفر الزغارى دربه أمه وأعدته
لتلك اللحظة .

* * *

ويحتاج الخبر حارتنا كالنار المستطيرة . نذهل ونفرع ونبكي
ونصرخ .

ونتمن الخبر وتبادل النظر فيتسلل إلى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان
وفرح .

ويستقر بنا الحال فنؤمن بأن علينا أن نحزن رغم أننا فرحون ، وأن علينا
أن نغضب رغم أننا راضون ، وأن علينا أن ننتقم رغم أننا شاكرون .
ويضر بنا موته كما أضرت بنا حياته وتكفهر الحياة بلعنات الشياطين .

الحكاية رقم (٥١)

ألعب أمام البيت مبهجا بشمس الشتاء .
في الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران .
وهو ذو نظرة حاملة وصوت عذب وملاحم أسرة ، ويعجبنى صوته
وهو يغنى :

عجايب والله عجايب ما يصحش يا منصفين
تهجرنى وتمشق غبرى وعواذلى مهنيين
وفجأة يصمت عبده وتعرب ملامحه عن حزن بلا سبب ظاهر ، ويخيل
إلى أنه يرمقنى باهتمام .

— مالك يا عبده ؟

ولكنه لا يرد أو بالأحرى لم يسمع . وكأنما يشرع في الضحك ولكنه

لا يضحك . وتند عنه صرخة ثم يسقط على وجهه . يتصلب عوده
وترتعد أطرافه ويطلق الزبد من شذقيه .
ويحمله أهل الخير إلى داخل بيته .
وأقص على أمى ما رأيت فهتفت بحرارة :
— الله معه ومع أمه المسكينة .
وأسمع همسا أنه ممسوس وأنه لا يوجد له دواء عند أهل الأرض .
وتسوء حاله ويسيطر عليه البله .
ويوما يرجع جعلص الدنانيرى من القرافة فى موكبه فتقف له الحارة على
الصفين ويركبها الهول ، إلا عبده فإنه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة
ويقول :

— إنى ألعنك و طظ فيك !
وأقول لنفسى جزعا : لقد هلك عبده .
ولكن الجبار يبتسم ، بل ويتأبط ذراعه ، ويمضيان معا فى سلام .
لم يرحم الجبار أحدا فى حارتنا إلا عبده .
وتعلمنى الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدر طائفتين : الفتوات
والبلهاء .

وتحوم أحلام صباى حول الطائفتين ،
أحلم حيناً بالفتونة وجلالها .
وأحلم حيناً بالبلالة وبركاتنا !

الحكاية رقم (٥٢)

يقف زيان صبي مبيض النحاس بين يدي فتوة حارتنا السناوى مبتهلا
فيقول له الفتوة :

— إن كنت صادقا فدعنى أجربك .

فيقول زيان بحماس :

— تحت أمرك يا سيد المعلمين .

فيقول السناوى بهدوء :

— اقتل أم على الداية .

ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله .

ويغوص زيان فى هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه :

— إنها المصيبة لم تجرلى فى خاطر !

قبيل ذلك اللقاء كان زيان فردا مغمورا من أهل حارتنا ، ومن الشبان
الكادحين فى سبيل لقمة العيش .

وكان يطوى قلبه على حب مضطرم لأم على الداية بالرغم من أنها تكبره
بعشرين عاما .

ويفكر فى حاله فتراعى له طريقه مسدودا ، ورزقه محدودا ، وأنه لن
يروق فى عينى أم على إن لم يقلب حاله رأسا على عقب بضربة سحرية .

(حكايات حارتنا)

لذلك حلم بالانضمام إلى عصابة السناوى ليشب فوق حاجز الحظ وثبة موقفة .

ويتشفع لدى الفتوة بصديق لأبيه هو ميمون الأعور فيزكيه الرجل عند السناوى ويقدمه إليه ، غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة أمره في ختامها أمره المرعب :

— اقتل أم على الداية !

* * *

ويهم زيان على وجهه في الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده إلى مخرج . ويتسلل إلى ميمون الأعور ليلا في الغرزة فيقبل يده ويقول له :

— يا معلم ، إني خجلان ، ولكننى لا أستطيع قتل أم على الداية .

ويظن ميمون أن عجزه راجع إلى قلة الحيلة فيقول له :

— ليس أسهل من ذلك فهى تدعى عادة إلى البيوت في أواخر الليل .

فيقول يائسا :

— أمنيى أن أتزوج منها ذات يوم .

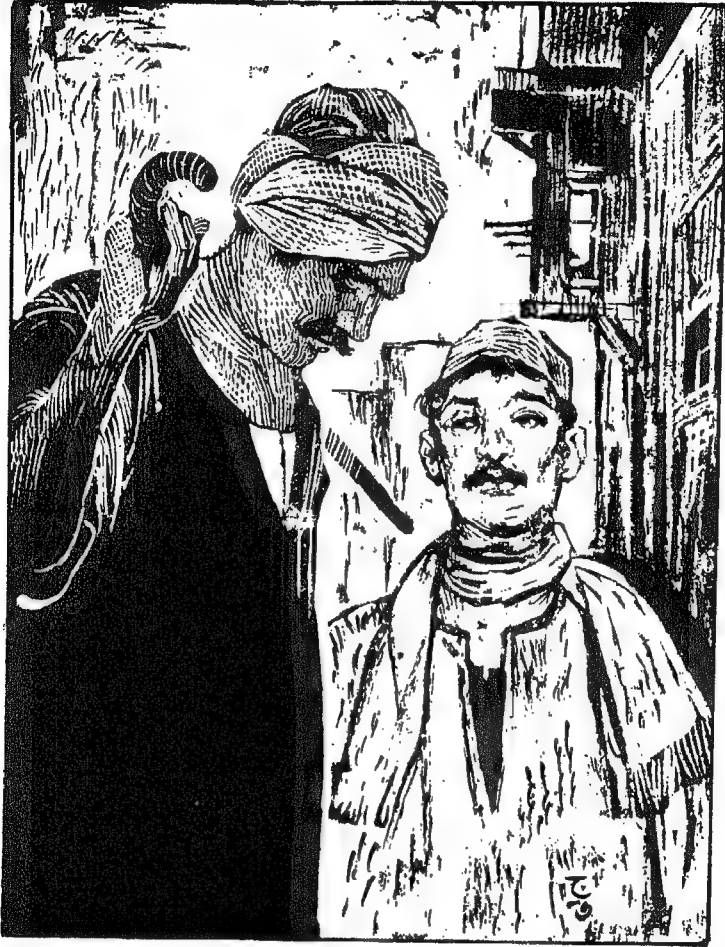
فيقول ميمون باستهانة .

— اقلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنسوان في حارتنا أكثر من الذباب !

— ولماذا أم على بالذات ؟

— هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه ، وهو يريد أن يجربك ، بل لعله علم برغبتك في المرأة .

فيقول متنهدا :



غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة

— الحق أننى لا أستطيع القتل !

فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول :

— أحسبت الانضمام للعصابة هوا ؟!

— أعرف الآن أننى لا أستحق هذا الشرف .

— فات الوقت !

— فات الوقت ؟

— لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة في الحارة .

ويعضى زيان وهو يعد نفسه في الضائعين .

ويفضى بهم إلى أمه فتنصحه بالهرب وتحنه عليه ، وقبيل الفجر يغادر
زيان بيته حاملا بقجة ملابسه وخمسين قرشا ، هاجرا بيته وحارته
وعمله ، مستقبلا العناء والمجهول .

وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من
عمر حارتنا .

الحكاية رقم (٥٣)

ومن فتوات حارتنا حموده الحلواني . ويحكى أنه الوحيد بينهم الذى
عمر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذى اعتزل الفتونة بحكم
العجز والكبر .

وقد تاب وحج ولزم المسجد في آخر أيامه .

ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب
درس العصر ، فقال للإمام :

- كثيرون يسيئون الظن بالفتوات ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون !
فابتسم الإمام وقال متهمًا :
— إنك على رأس أولاد الحلال .
فقال حمودة بإيمان :
— حصنى من الخير لا يستهان بها .
— عظيم ، أعطنى مثلاً يا معلم حمودة ؟
— أتذكر رجل الفل الذى اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات ؟ . أنا
الذى دبرت مصرعه !
— ولكنها جريمة يا معلم .
— أبداً ، وأنا الذى قتلت سمعة الدنش الذى قتل ابن زوجته .
— ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة !
— طظ في المحكمة ، كان قلبى دليلى وهو أصدق الحاكمين !
ثم بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه فى أواخر عمره :
— ومن حسناى أننى قتلت فهيمة الآلاتية القوادة المعروفة !
فقال الإمام يازدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان :
— قيل وقتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها !
— لا تصدق كثيرا مما يقال !
فضحك الإمام وقال :
— زدنى علما بحسناتك !
— وقتلت أيضا بمنى الخيشى .
— وماذا كان ذنبه ؟

— المعجزة ، كان يسير في الحارة كأنه خالقها .
— تعنى أن نفسه سولت له أن يقلد فتوته !
— إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لى بفضل .
— لا تغضب وزدنى علما بحسناتك !
فضحك حمودة عن فم لم يبق فيه ناب واحد ولا ضرس ثم قال :
— حوادث القتل الباقية لا تعد من الحسنات وقد تاب الله على والحمد
لله .

فقال الإمام بعد تردد :
— ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش
العبد ؟!

فضحك حمودة واستغفر الله ، فقال الإمام بالحاح :
— حدثنى بخبره يا معلم حمودة .
فقال الرجل الذى لم يبد قط أن ذكريات جرائمه تؤرقه :
— كنت جالسا فى داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخن
البورى ، لم يكن بينى وبينه شىء على الإطلاق ، فدخن البورى وشرب
قهوته ثم قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى « غدا سأكون عندك فى
مثل هذا الوقت بالديقة والثانية كما اتفقنا فلا تنس » ، وما أدرى إلا
والغضب يجتاحنى فقررت فى الحال قتله ، ولم يطلع عليه الضبح !

— أذلك كل ما كان ؟
— بلا زيادة ولا نقصان !
— ولكن ما الذى أغضبك ؟

- لا أدري ، حتى اليوم لا أدري .
— ولكن لا بد من سبب !
— ربما أحققتنى ثقته البالغة فى نفسه وفى غده ، كان يتكلم بثقة
وطمأنينة !
— ولكن لا بد من سبب غير ذلك ؟
— قل إنه قتل بلا سبب ! .
فتعجب الإمام ورمى الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم
يبق منه إلا هيكल عظمى .

الحكاية رقم (٥٥)

ومما يحكى أنه كان بحارتنا شاب صعلوك يدعى عباس الجحش . لم
يكن يوفق أبدا فى إتقان حرفة ولا يمكث فى دكان أكثر من أيام ثم يطرد شر
طرده . وذات يوم رأى عباس عناية المتولى بنت بياع الدندورمة فأترع
قلبه برحيق الحب المسكر . ولم يجد سبيلا مشروعا إليها فتفتق عقله عن
حيلة ، أن يتآمر مع صحبه من الصعاليك على أن يمثلوا مع الفتاة دور
المتحرشين وعلى أن يمثل هو دور ابن البلد الشهم . وخرجت عناية
لتنسوق فى ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعريضة ، فوثب
عباس الجحش من مجلسه على سلم السبيل ، فانقض عليهم كالوحش ،
صرعهم واحدا فى إثر واحد حتى طرحهم أرضا ، ثم تقدم من البنت وهو

يلهث قائلا :

— مصحوبة بالسلامة .

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة . وجعلت من مغامرته حكاية
تتناقلها النساء والرجال .

وصادف ذلك وقتا خلت فيه الحارة من فتوة . ولم تكن الفتوة قد
زالت بعد — فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا أن يكون لها فتوة ؟
ورأى أحدهم عباس وهو يحوم حول بيت يباع الدنلورمة فهتف به :
— أهلا بالجحش فتوة حارتنا !

واهتز عباس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام ، وتحت سطوة المخدرات
قال لنفسه :

— فلنجرب هذه اللعبة !

وجمع أصحابه ، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد أن فرش طريقه
بالدعاية المناسبة . وكانت الحارة في حاجة ملحة إلى فتوة لتحفظ ذاتها
وكرامتها بين الحواري المتصارعة ، فاستقبلت عباس الجحش وصحابه
بزفة وبايعته فتوة لها . وتحول الصعاليك إلى عصابة ، وانهاالت عليهم
الإتاوات ، فتحسنت أحوالهم ، وازدهت الخيلاء فخطرخوا في الأرض
كالجمال ، ورويدا رويدا صدقوا أوهاهم .

وطلب عباس الجحش يد عناية المتولى فقال له أبوها بوجه طافح
بالبشر :

— بشرى لنا يا معلم !

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتم إلا بعد الزفة .
وتنبه عباس متأخراً إلى أن زفة الفتوة يجب أن تطوف بالحى كله ، وأنها
الاختبار الرهيب للفتوة ، تجابه فيها تحديات الأعداء ، فيرجع منها إلى
شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضى إلى القرافة .
لا بد مما ليس منه ، وماذا يمنع الحظ من أن يخدمه مرة أخرى ؟
وسكر وسكر أصحابه .
ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل ، وسار فيها رجال
الحارة .
وعند باب زويلة .
عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف ورجاله .
رآه عباس فطارت الخمر من رأسه .
ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب الجحش حتى
ركبتيه .
وهتف أهل حارتنا فى حماس وبراءة فاضطر عباس إلى أن يلعب بنبوته
كذلك .
لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية .
وتقدم خطوات فى سكون ثقيل فتقدم فتوة العطوف فى غاية من
الحذر .
واندفع عباس نحو خصمه حتى ذهل أصحابه .
وفجأة .
وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفى ثم انطلق فى ظلماتها

مثل رصاصة لاثنا بالفرار !
ووجع الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .
ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .
ولم ير عباس بعد ذلك في حيننا كله . وظل قرانه معقودا حتى سقط
بمضى المدة .

الحكاية رقم « ٥٤ »

الويل لنا عندما يشتد النزاع بين الحارات ، عندما تتصارع التحديات
بين الفتوات .
نتوقع في الليل أن نتجاثنا هجمة غادرة ، نتعرض في تجوالنا في الحى
لتحرشات مباغتة ، تنقلب أفراحنا إلى معارك دامية ، يسود وجه الحياة
ويكفهر .
ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوقا بالمخاطر أما التسلسل عن طريق القرافة
فيتهدده الشياطين وقطاع الطرق ، فننحصر في حارتنا كالفئران في
المصيدة .
ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية .

* * *

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرق ، يقولون :
— لا بأس من هدمه لتتسلل منه إلى صحراء الجبل ، ومنها إلى أطراف

الأحياء البعيدة التى تتعامل معها ونحن فى مأمن من الأخطار المحدقة بنا .
والسور عتيق يكون الجناح الشرقى للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من
سفح المقطم . وتطيب الفكرة لنا فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا
بتنفيذ الفكرة . ويتساءل أناس .

— ألا يمكن أن يهتدى العدو إليها فيياغتنا منها ؟

فيجيب أصحاب الفكرة :

— الوصول إليها عسير ، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم
فضلا عن أنه من اليسير حراستها !

ويشرع العاملون فى العمل ، ويتيهأ لنا ممر إلى الصحراء نطلق عليه
« ممر السبيل » حيث إنه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثرى مباشرة .
هكذا نخلق ممرا سرىا للعالم الخارجى متجنبين طريقى الميدان والقرافة
اللذين يحدان حارتنا من طرفيها .

ويتحدث مدرس الجغرافيا ذات مساء فى المقهى فيقول :

— نحن نتوهم أننا حققنا الأمان لأنفسنا وأنه لم يعد ثمة ما نخافه !

فيتعجب السامعون لقوله فيقول :

— كأن معاركنا مع الحارات المجاورة هى جملة ما يهدد سلامتنا !

فيزداد تعجب الناس من قوله وادعائه أما هو فيمضى قائلا :

— هنالك خطر هائل لا يفتن له أحد ولكنه كفى بالقضاء على حارتنا

كلها بضربة واحدة ..

ولما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب :

— الممر الذى شق فى السور الشرقى .

— ممر السبيل ؟

— لو ينهمر من السماء سيل فيكتسح السفح وينقض على الممر فيغرق
الحارة !

وتتجمع في أعينهم أمارات الدهول والسخرية ويقولون :
— إنها لا تمطر في العام إلا مطرة واحدة وهي مطرة خفيفة كاللدابة .
ولكنه يستطرد غير مبال باعتراضهم :
— الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة في الوسط .
ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين :
— يريد منا أن نستعين بخاطر داهم عاجل لا لقاء خطر وهمي لا يقع إلا
في خياله .

وتمضى أعوام والحارة منهمكة في صراعها اليومي . المدرس يكرر
تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلا هازئا حتى أطلق عليه « الأستاذ
مسيلمة » .

وتربدا السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسود وتهبط فوق المآذن .
وتهب عاصفة تدك العلالى فوق الأسطح وتلعب بأشجار التوت في
التكية .

وينهل المطر كأنه أنهار تتدفق من عل .
ويتواصل انهلاله ثلاثة أيام كاملة .
حدث كوفى لم نعرفه من قبل غضبية فلكية كاسرة . وينصب من الجبل

طوفان فيندفع نحو الممر بسرعة قطار صاحب ، ويزجر في هدير شامل
تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجمع .

وتختفي أرض الحارة تحت طبقات من المياه المركزة المحصورة ، وتأخذ
المياة في الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات
والأدوار السفلية وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزاناً ومن
الساحة بحيرة ومن الممر الضيق بين التكية والصور نهراً زائحاً ، ثم تجتاح
المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث في أحاديث لا حصر لها تغطيها
الأكفان والخرق البالية .

وتهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافى وثقوباً فيهجر الحارة أهلها
مذعورين وينتشرون في الصحراء لاجئين مشردين والخراب يحيط بهم
وارثا الأرض وما عليها .

محنة لا تنسى .

وذكرى مبللة بالدموع .

الحكاية رقم (٥٦)

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرر — كما فعل زيان في زمن أسبق — محاولة الانضمام إلى عصابة « الدقمة » فتوة حارتنا ، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له :

— احذر أن تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحة أو هذا الجلباب المزيث ، كن مثل الماء الصافي النقي ثم جرب حفظك .
وقال له أيضا :

— فتوتنا يحب الجمال والنقاء ، وهو طراز وحده في سلسلة فتواتنا فافهم ذلك جيدا .

واقنع عبدون بأن الطريق إلى الدقمة ممهد ميسور ، فذهب إلى الحمام ليغير جلده في المغطس ، وأعد جلبابا ومركوبا جديدين . وفيما هو منهمك في تجديد نفسه سأله صاحب له :

— ماذا هناك يا عبدون ؟ هل تفكر في الزواج ؟
فباح له بسرّه ، وكان الآخر صاحبا أميناً فقال له :
— ليست النظافة وحدها هى ما تهم الدقمة ، إنه أيضا يجب الحكايات .

— الحكايات ؟

— عنترة وأبو زيد وغيرهما ، فإن لم تعرف السير تعذر عليك أن

تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة .

— ولكن تحصيل ذلك يطول !

— عندك الراوى فى المقهى فلا تضيع وقتا إن كنت صادق الإرادة

حقا !

ثم قال له وهو يمضى عنه :

— تغير الزمن يا عبدون ، فى بادى الأمر كان الدقمة يرحب بأى رجل يروم الانضمام إليه ، أما اليوم فهو يستوى على عرش القوة دون منازع . وتفكر عبدون فى الأمر مليا . وكان عبدون رجلا عاقلا . قال لنفسه إنه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهواذة والصبر والإتقان ، وألا يتكالب على هدفه تكالبا يفسده عليه . لبث فى الوكالة يعمل بهمة ، وتزوج ، وواظب على السهر فى المقهى يتلقى الحكايات على أنغام الرباب . لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة ، فالعمل فى الوكالة شاق ، وأعباء الأسرة لا يستهان بها ، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل ، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيل حلمه العذب يوم يمثل بين يدى الدقمة فى نقاء الماء وثرأء الرباب .

وذاع سره ، وعرف كل من هب ودب أن عبدون الحلوة يعد نفسه للفتونة .

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح ، فقال له أحدهم :

— النظافة مهمة ، والحكاية مهمة ، ولكن الشجاعة عند الدقمة أهم

من الاثنين !

— الشجاعة ؟

— أجل ، واحذر فى الوقت نفسه أن تستثير غيرته فيحنق عليك بدلا
من أن يرضى !

— وكيف أوفق بين هذا وذاك ؟

— تلك هى مشكلتك وعليك أن تحلها بالفطنة يا عبدون يا ابن
الحلوة !
وقال له آخر :

— والقوة مهمة أيضا ، عليك أن تثبت قوتك ، عليك أن تثبت أنك
قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنك قادر أيضا على تحمل الضربات
مهما اشتدت .. ، وعليك أن تثبت له أيضا أن قوتك لا توزن بحال
بقوته .

— ولكن كيف يتأتى لى ذلك كله ؟

— تلك هى مشكلتك يا عبدون !

ساورته الحيرة ولكنه أراد أن يطمئن نفسه فقال :

— أهل الخبرة يقولون إنه يحب الجمال والنقاء والخير ، أشهد أن

معاملته للبان تقطع بميله الأصيل للخير !

فتساءل الآخر فى حذر :

— وماذا عن معاملته للسقاء ؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال بإصرار :

— أخبرنى أى ذات مرة أنه يحب الفقراء .

— بوسعى أن أعد لك عشرة على الأقل من أفقر فقراء حارتنا قد نكل

بهم وشردهم .

خرج عبدون من الأحاديث معتما مهموما حائرا ، حتى العدول عن الطريق خطر له ، ولكن الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص . وتشعبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والرباب وتجارب القوة والشجاعة ومغامراتهما . ومضى — رغم صلابته — ينوء بالعبء ، وتنزل قدمه ، وتتراخي قبضته ، تبدد وقته وتشتت عقله وارتكب حماقات متلاحقة ، وتمادى في طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته ، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة ، وطلق — عقب مشاحنات كثيرة — زوجته .

لم يكثرث لذلك كثيرا ووطن أن الوقت أزف للقاء الدقمة الذى لم يبق له غيره .

وتفحصه الفتوة مليا ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

فأجاب عبدون :

— أن أصير من خدامك .

— أترى نفسك أهلا لذلك ؟

فأحنى رأسه ليخفى زهوه بمنظره الأنيق وقال :

— عندي ما يريد معلمى وزيادة !

فقال الدقمة بجفاء :

— لست فى حاجة إليك .

فذهل عبدون وقال بضراعة :

— فى سبيلك فقدت أسباب حياتى جميعا .

(حكايات حارتنا)

فقال الدقمة بلا اكتراث :

— أعرف ذلك .

— وتطردي رغم ذلك ؟

فقال الرجل بنفاد صبر :

— بل أطرّدك بسبب ذلك ...

وبات عبدون الحلوة نادرة تروى ..

الحكاية رقم (٥٧)

زغرب البلاقيطى من فتوات حارتنا المعدودين . وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر .

رشيّق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبوت لعيب . ولولا إيمانه — وهذا حقيقة — بأن هيبة الفتونة لا ترسخ إلا بالنصر ما خاض معركة قط . ويصادفه التوفيق في معاركه فيضرب فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثم يمتد ظله فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة . ونجبه جميعا وتنغنى بانتصاراته وننعم بأبوته اللطيفة . وهو يجلس كثيرا فى المقهى ليتابع الحكايات ، ويقرب إليه أهل النكتة والمنشدين والزجالين ، أحياه على صغر سنّى فيرد التحية بذوق يبعث فى أعماق النشوة والأمل . وسلوكه معنا فريد غير مسبوق بشبيهه . يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة ، حتى هو نفسه يعمل

تاجر جملة للمخدرات ، ولا يطالب بإتاوة إلا للضرورة القصوى .

* * *

ولكن الفتونة هي الفتونة على أى حال .
فكلمة زغرب البلاقطى هي الأولى والأخيرة فى أى أمر من الأمور .
والتحكم مرّ ولو كان طول العمر نتيجه . إنه يحذر الرجال من العريضة
ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيد حرية الغلمان فى لعبهم .

ويغالى فى التدخل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز
لبطولة أى زيد ، ويبطل الزواج الذى يراه غير متكافئ ، والطلاق الذى لا
يعجبه وإن رضى به الطرفان ، ولم يكن أحد يتجرأ على طلب الكراوية أو
الأنيسون عند وجوده فى المقهى لنفوره منهما .

وفى كلمة كبلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه . وزاد من
حرج الموقف تكاثر المعلمين فى حارتنا يوما بعد يوم ، وشدة
حساسيتهم ، وحدة ألسنتهم .

— اللعنة .. لم يبق إلا أن تنتفس بأمره .

— إنه مستبد ولكنه عادل .

— مستبد يعنى أنه غير عادل .

يسمع ما لم يكن يسمع بحارتنا . لأول مرة نعاصر حملة على الفتونة فى
ذاتها وبصرف النظر عن مزايها . لأول مرة يقال إنه نظام بال وأنه آن
للشرطى أن يحمى العباد . لأول مرة يلعن الفتوة الطيب كما كان يلعن الفتوة
الشريرة .

ويترامى التهامس إلى زغرب البلاقطى فيغضب ويصيح :

— أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !
ويتجههم وينذر بالعنف .

* * *

وتتوجه قلوب نحو هجار الأقرع .
عملاق ورع وفيه شيء لله . إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقيا بالعواقب
جانبا .

وهو يقبع في الليالي في الساحة أمام التكية يردد الأناشيد ويحدث
نفسه . يتسلل إليه في الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون :

— أتريد يا هجار أن ترضى ربك ؟

فيعتقد هجار أنه يسمع هاتفا من الغيب فيقول :

— لبيك !

فيهمس الرجل :

— لقد أعطيت القوة والبأس فحطم الأغلال ..

* * *

وينطلق هجار في الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدسة .

وتوقع الطيبون أن ينهار سجن الأغلال .

ويلوح هجار المارد بنبوته . وفجأة يضرب إمام الزاوية . ويثنى بامرأة

ماضية في الطريق . وينهال بنبوته على تجار وعمال وتلاميذ !

وهاجت الحارة وماجت ، وتصايح الناس :

— جن الأقرع ..

— اقبضوا عليه ..



أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !

— حاصروه واضربوه ..
ورمى بالطوب من كل موقع حتى سقط مضرجا بدمه .

* * *

لم نفقه لما حدث معنى . وظن كثيرون أن الرجل لم يفهم الرسالة أو أنه
أساء فهمها ، أو أن في الأمر سرا ما زال خافيا .
ولكن التذمر من زغرب البلاقيطى يتزايد ، ويجهر كثيرون بما
يضمرون ، ويعتدى الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة ،
وتسرى في الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل .
وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنها تقضى في النهاية على تراث خطير
وتفتح الأبواب لعصر جديد .
وتستعاد حادثة هجار الأقرع في ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزا
للحياة الجديدة .

الحكاية رقم (٥٨)

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك . في الحارة عصابات متخاصمة ، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر . ويغلى الحقد الأسود ، وتمج القلوب كراهية وتكاثر حوادث الاغتيال ، وينذر الغد بكارثة .

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض . ثمة تجمعات من السحب القائمة تنتشر في الأفق ، غريبة في غير زمانها ، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس . وتتطاول نحو كبد السماء وتنداح فتخفى إحداها الشمس وتوارى الضوء المنير .

وتمضى التجمعات في التكاثر والتقارب . وتتصل وتتلاصق فتحول إلى تكتلات شاسعة ، في ببطء ولكن في ثبات وإصرار حتى تشكل في النهاية سقفا غليظا من السواد العميق .

وتشخص الأعين نحن السماء متسائلة ، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحن السماء .

وتدب في السقف الأسود حركة متوترة فيبدو متموجا متصارعا متلاطما كأنه محيط من الظلمات مشتبكا في نضال ضار .

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة ، لا يدرون عم تتمخض ، ويتوقعون مزيدا من الإثارة المقلقة .

ويعضى الجو يتشرب بلون رمادى غامق ، يزداد قتامة وتجهما ،
ويعضى بحر السواد يقطر نتفا سودا ، تنتشر فى الجو ثم تزحف هابطة فى
هدوء مخيف .

ويهجّر الناس الحارة إلى الميدان ، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة ،
ينشدون فى الانطلاق والتجمع البشرى ما يفتقدون من أمان .
وتنفذ إلى حواس الشم رائحة ترايبية مثيرة للأعصاب ، يأخذ الكون
فى الاختفاء ، وتتخايل الأشباح ، ثم يغرق كل شىء فى ظلام دامس .
وترتفع الأصوات المتهدجة :
— يا ألطاف الله .

— ارحمنا يارب العالمين .
وتشملنا ساعة من التوقع المتوتر لأى خطر داهم لم يجر لنا فى خيال من
قبل .

وتتلاحم الأيدي فى الظلام لا تدرى يد فى أى يد توضع ..

الحكاية رقم « ٥٩ »

غنام أبو رابية له قصة طريفة .
من ناحية الأصل يعد من فقراء حارتنا . تفوق في المدرسة وعين بوزارة
الداخلية ، وترقى في درجاتها حتى شغل منصب المشرف المالى على الأموال
السرية .
يتميز على صعاليك أسرته بالمسكن النظيف ، والزوجة الجميلة ،
والغذاء الطيب ، وله في مظهره هيبة ، وفي مجلسه قطب يقصده ذوو
الحاجات .

* * *

ويختفى ذات يوم غنام أبو رابية فلا تراه عين .
يتردد السؤال عنه في البيت والمقهى ، بين المعارف والأقارب
والحساد . لا يظفر أحد بجواب حاسم ، ثمة غموض يكتنف الموضوع
ويثير الحيرة والريب . ليس الرجل مريضا ولا على سفر ولا صلة له
بالسياسة مدها وجزرها ، ولا خصوم له على الإطلاق ، فلم يبق إلا أن
تحوم الظنون حول أمور غاية في الحساسية . وأن تختلف فيها الآراء تبعا
للنوايا والعواطف الشخصية ، فنسمع حيناً أنه هرب ، ونسمع حيناً آخر
أنه قتل .
ويظهر غنام أبو رابية ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة . ويتزاحم

المهنتون في داره . ويفسر الرجل سر غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسفول في الداخلية ، تطور إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسفول ، فقبض عليه ، ولكنه أصر على موقفه حتى أفرج عنه .
ويصدق الناس ذلك ويعدونه بطولة . ويحال غنام أبو رابية على المعاش قبل مياعده القانوني بعشرة أعوام فيعتبر شهيدا ، والناس ذوو استعداد فطري لسوء الظن بالداخلية .

* * *

ومع الأيام تناقل الناس حكاية جديدة عن غياب غنام أبو رابية ، لا أدري كيف نشأت ، ولا من كان أول ناشر لها ، ولا مدى ما تنطوى عليه من صدق ، ولكنها رغم ذلك كله تنتشر وترسخ وتنضم إلى تاريخ حارتنا .

يقال والله أعلم أن غنام أبو رابية استغل مركزه كمشرف مالى على الأموال السرية فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات ، وقيل أكثر من ذلك . وأنه ضبط وحقق معه واعترف . كان الموقف غاية في الدقة والخرج ، فالرجل محيط بأسماء من توزع عليهم الأموال السرية في جميع المواقع ، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة ، فما العمل ؟ . طالبوه برد المبلغ في نظير العفو الشامل عنه ولكنه رفض . ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنه لم يبال . لم يعثروا للمبلغ على أثر ، وتجنبوا تقديمه للنياحة حتى لا ييوح هناك بأسراره ، وكرروا المحاولة للاتفاق معه دون جدوى . أدرك منذ بادئ الأمر أنه في الموقع الأقوى وتلقى كافة التهديدات بسخرية . وقال لهم :

— ألوف وألوف وألوف تنفق كل يوم على أوغاد بلا خلق فما الجريمة في أن أنال قروشا لنفسى وتراب حذائى أشرف من أكبر رأس فيهم ؟. إلى أرفض رد ملهم واحد وأطالب بتقديمى للنيابة العمومية . ولم يكن فى وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد ، ولا أن يتحملوا مسئولية القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك ، فاتفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألا يسأل عَمَّا اختلس مع إحالته على المعاش فى الوقت نفسه .

وقد اشترى الرجل خرابة وشيد فيها عمارة واعتبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا .

الحكاية رقم (٦٠)

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين فى نقش الأواني النحاسية . يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار ، ويرى هائما على وجهه فى الساحة أمام التكية ، لا يعرف أحدا ولا يعرف نفسه . وسمعت أمه بالخير فمضت إليه ولكنه لم يعرفها ، نادته باسمه فبدا وكأنه يسمعه لأول مرة ، إنه غريب تماما ، وكأنما ولد لساعته .

وانجهت الظنون إلى المخدرات ولكن ذهوله طال ، تجاوز اليوم ، ويوما بعد اليوم ، ثم استقر كحال جديدة ثابتة ، أصبح رمانة وعاء خاليا من الذكريات والعلاقات البشرية ، أصبح جثة غير هامة . وقيل — كالعادة

في حارتنا — إنه ممسوس ، وعولج بوصفات شتى من الطب الشعبي المناسب ، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار ، ولكنه لم يبرأ فسلم الأمر فيه إلى الرحمن .

* * *

وذات صباح تقرأ أمه في عينيه نظرة جديدة ، نظرة متألفة تعكس شخصية غائبة كأنما هي ترجع فجأة من سفر طويل . يخفق قلب الأم بالأمل وتهتف :
— رمانه !

فينظر رمانه إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع :
— تأخرت عن الدكان .

ويمضى مسرعا إلى الدكان وأمه تجهش في البكاء .
ويقبل على معلمه قائلاً :

— غلبني النوم فمعدرة يا معلم .

ويرمقه الرجل في صمت وارتباب ، ولكنه يتركه يزاول عمله وهو يحدس بفراصة صادقة ما طرأ على الشاب . وينظر رمانه فيما حوله باهتمام ، ولما لا يجد ما يبحث عنه يسأل :

— أين يومي ؟

بيومي صديقه وقرين طفولته ، توقع أن يراه كالعادة قبالة ، ولكنه لا يوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله عنه اهتماما .

* * *

ويعلم رمانه رويدا أنه غاب عن الوجود أشهرا كاملة . يتلقى هذه

الحقيقة بنعومة وأناة ، ومع ذلك لا يدري كيف يهضمها . ويعود للسؤال
عن صديقه ييومى فيقال له :

— البقية فى حياتك !

فيصرخ :

— ييومى مات !

— بل شنى !

— شنى ؟ !

— اتهم بقتل زينب بياعة الحلى الزجاجة !

ويتمتع بذهول :

— ييومى قتل زينب !

قليلون جدا الذين عرفوا أن رمانة فقد صديقه الوحيد وحييته
الوحيدة ، وأولئك قالوا أيضا :

— وهو يعلم الآن أنه فجع فى الحب والصدقة أيضا !.

وقالوا :

— لقد ذهبوا مخلفين له الخيانة والخواء ..

وعانى رمانة تغيرا فى الشخصية . لم يترد إلى الغيبوبة لكن تسلل إلى
صميم روحه الخمول وخيم عليه الصمت . عاش محتجا رافضا كارها ،
يدبل ويهزل ، حتى مرض مرضا أقعده عن العمل ، واسود الأفق فى
عينيه .

وأرادت أمه أن تعزیه فقالت :

— لست فريدا في مصابك فمصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى !
فغادر المسكن من فوره قاصدا قسم الجمالية . مثل بين يدي المأمور
وقال بهدوء :
— أنا قاتل زينب بياعة الحلى الزجاجية ..

الحكاية رقم (٦١)

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسول وخفة اليد .
تسلل ليلة إلى بيت ست ماشاء الله عندما ثبت له غيابها في فرح . ولسبب ما
رجعت ماشاء الله مبكرة على غير توقع ، فما يدري إلا وهى مقبلة نحو
حجرة النوم فاندعر واندس تحت الفراش وهو يرتعد .

أشعلت المرأة المصباح ، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقها وهى
تذهب وتجيء ، وسمعها وهى تترنم بحنان :

لك على لما تيجى تبقى ليلة أبهة

ترى متى يتاح له الهرب بأمان ؟

و غابت ست ماشاء الله دقائق ثم رجعت بأربع أقدام !. ثمة طرف
جلباب مقلم ومركوب أخضر ، فانتقبض صدر ابن عيشة وأيقن أن حبسه
سيطول !

قالت المرأة :

— آنست ونورت .

فقال صوت غليظ :

— لا يتصور أحد إلا أننا في الفرع .

وتناهى إلى اذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات وهمسات مرحة .

قالت المرأة :

— لن يتخيل مهما تخيل أننى أفلت من زحمة الفرع .

فقال الصوت الغليظ :

— سيقتلنا يوما إن لم نقتله !

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحت الفراش ، وبدأ تأثير المنزل

ينمل حواسه ويزحف نحو جهازه التنفسي ، ويتشر في روحه منذرا

بعواقبه المألوفة .

وسبح ابن عيشة في بحر لا شاطئ له ثم مضى يطير في الفضاء بتؤدة

وهيمان . حتى بلغ ذروة عالية نظر منها إلى حجرة ست ماشا الله فرآها

بشيء من الوضوح على ضوء المصباح ، رأى العاشقين ، وحتى الرجل

المختفي تحت الفراش رآه ، تبدت المرأة عارية متموجة في سحابة من دخان

رمادى على حين مضى الرجل — كقرد — يشب بين غصون شجرة

فارعة . وترامى اللعب بلا نهاية غير أن عاصفة اجتاحت المكان المتوارى

فتطاير الدخان وتلاطمت الأوراق . وأكثر من صوت نادى بالدم ،

وتتابعت أصوات الارتطام والدق ، وتبدلت ضربات غاية في العنف

والقسوة ، وأقبلت قوات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحب أثر ..

وقرر ابن عيشة أن يواصل طيرانه في الفضاء مبتعدا ما أمكن عن

كوايس الأرض .. ، ولكنه ارتطم بشيء أو لعل شيئاً ارتطم به .
وبمشقة استطاع أن يتملص من قبضة وأمكنه أن يحرك عنقه .. ، وأن
يرى الضوء .

وجُرَّ جراً من تحت الفراش .

وقف مترنحاً في الحجرة ينظر في الوجوه المكددة به بذهول .

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة :

— هذا ابن عيشة .. نشال يا فندم .

فقال الضابط :

— أخيراً تعلم كيف يقتل .

وقبض عليه .

ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ست ماشاالله وعشيقها ،

ثم قبض على القاتل في أثناء التحقيق .

وكان ابن عيشة يحكى قصته مرة كل ساعة . وقد أصابه لطف في آخر

أيامه ، وكان يقال إن الدروشة هبطت عليه تحت فراش ست ماشاالله .

الحكاية رقم « ٦٢ »

كان الحاج على الخلفاوى من أغنياء حارتنا . عرف بالطيبة والصلاح أكثر مما عرف بالثراء ، يعطف على المظلومين ، ويعين الفقراء ، ويبر ذوى القرى ، ومع الأيام ازداد ورعا وتقوى ورحمة ، ولكنه خص آل مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممن يظلمهم عطفه . وكان آل مهران قوما فقراء ، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورطوا فى الجنح والجرائم واشتهروا بالعنف والبلطجة .

ولما شعر الحاج على بدنو الأجل استدعى إليه أكبر أبنائه وقال له :
— لقد رأيت حلما .

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاج :
— آن لى أن أزيح عن صدرى جبل الهم الأكبر .
فسأله ابنه :

— ما الحلم ؟ وما الهم الأكبر ؟

فاستغفر الحاج ربه وقال :

— بخلاف الظاهر يا بنى كانت حياتى مريرة !

— لم يا أطيب الناس ؟

فقال الحاج وهو يتنفس بمشقة :

— أريد أن أحدثك عن آل مهران .

(حكايات حارتنا)

— إنهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقون ، بل الحق أنهم لا يستحقون إلا العقاب .

فأسبل الحاج جفنيه وقال :

— إنهم يستحقون كل ما غمك !

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكا لمهران الأب في شبابه الأول ، وأن الوفاة حضرت الرجل وهما في سفر فسرقت ماله .

— المال الذى استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهران يفقده إلى ما هم فيه .

قال الابن باضطراب :

— إنك لا تعنى ما تقول يا أبى .

— إنها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وغمرهما صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج :

— كانت الحياة مريرة ، أريد أن أجنيك اللعنة ، أريد أن يرد المال لأصحابه .

فتساءل الابن محتجا :

— هل نعترف بأننا لصوص ؟!

فقال الأب بضراعة :

— هذه هى مشكلتك يا بنى .

— بل هى مشكلتك أنت يا أبى .

— إني أتردى فى حضرة الموت .

فتساءل الابن بجفاء .

— ولم لم تفكر في التكفير من قبل ١٩
وأغمض الحاج عينيه كأنما تلقى لكمة ، وغمغم :
— اللهم مد في عمري حتى أهيء نفسي للقيك .
ولكنه مات قبل ذلك ، بل إن رواية القصة يهتمون ابنه بالعبث بدوائه
ليعجل بنهايته .
هكذا تروى الحكايات ، وبدقة في التفاصيل لا تتاح إلا لمن شهدها .
ولكن هكذا تروى الحكايات في حارتنا ..

الحكاية رقم (٦٣)

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة في ضفاف الصبا . في أحد الأعياد
مزق شلضم جلباب قرمة الحديد فاشتبكا في خناقة حامية فضرب قرمة
شلضم بمقدم قبضه فقطع حاجبه ، وسجل في وجهه أثرا باقيا .
منذ ذلك التاريخ القديم عشت عاصفة صفراء ضاربة للسواد في
أعماقهما ، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط في المناسبات ،
ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفائة للحقن ، ويظل منظر أحدهما
قوة غادرة ومتحدية للآخر .
في الكتاب يتبادلان الغمز واللمز ، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرض
عليه سيدنا الشيخ عند أية فرصة سانحة .
ومات أبو شلضم وأقيم سراق العزاء كالعادة ، ووقف قرمة فوق

سطح غير بعيد وراح يغنى :

حود من هنا وتعال عندنا

ولما خطب شلضم بنت الفسخاني حاول قرمة خطفها منه ، بالحيلة
وبتسوى سمعته عند أهلها ، وفي خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم
قطعة من أذن قرمة وترك به أثرا باقيا كالذى تركه بوجهه من قبل .

وتزوج كل منهما وأنجب ، وتفرقت بهما سبل العمل ، وتقدم بهما
العمر شوطا ، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل ، حتى إنهما تبادلا السباب
مرة في أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الإمام :
— لعنة الله على الشيطان وصحبه .

وصارا في حارتنا نكتة ، تستثير الضحك من بعيد ، وتنذر بشر
متجدد .

وتحسن أحوال قرمة ، ظهرت عليه النعمة ، فتح دكانا للدخان
بأنواعه ، لمع الذهب في أصابعه وأسنانه ، وادعى أمام الخلق أنه ربح ورقة
نصيب فاستثمر ربحها ، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال
معلمه ، وأنه لص لا أكثر ولا أقل .

وتوهم شلضم أنه قادر على أن يشق سبيله مثله فامتدت يده إلى مال
معلمه ولكنه ضبط وحكم عليه بالسجن بضع سنين ، وغادره مفلسا
ضائعا يرى غريمه في عداد الأعيان فجن جنونه ، ولم يجد بابا مفتوحا إلا
باب البلطجة فولجة بعنف ورغبة متصاعدة في الانتقام ، وجعل هدفه
الأول المعلم قرمة ، حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده . لم
يعد قرمة صعلوكا كما كان من قبل ، إنه يملك الآن مالا وبنين وأسرة وجاها

ويريد أن يحافظ عليها جميعا ، وأن يتمسك بالحياة من خلال تمسكه بها ، ولو تجشم في سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراء حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه .

واستجاب شلضم لسياسة خصمه ليبتز ماله وليتأدى في ذلك بلا نهاية وبلا حياة ، واستحر الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلا الموت .

ودبر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجل ممن يؤجرون للقتل . وتوجس شلضم خيفة فقرر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله . وتربص له بليل ثم قتله .

ولكنه لم ينعم بالحياة بعده إلا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفي بقية مستحققاته من أرملة قرمة .

هكذا قتل الرجلان في ليلة واحدة .

* * *

ويقول ألى بعد أن يحكى هذه الحكاية :

— الكراهية من الشيطان يا بنى ولكن الإنسان مثير للدهشة .

الحكاية رقم (٦٤)

عرف الخفير سلامة بالضمير الحى .. كان من القلة النادرة التى تقدر القانون فى حارتنا التى لم تعود بعد على احترام القانون لحدائمه تحررها من الفتونه وتقالدها المتحدية الاستغزازية، ولاستقامته أثار دهشة أهل الحارة واستحق عن جدارة احترام المأمور والضباط . وتزوج سلامة أرملة تكبره فى السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه فى عننة لم تخطر له على بال . وأكد الشاب — ويدعى برهومة — المحنة بسطوه ليلا على أحد الحوانيت . وضبطه متلبسا الخفير الساهر اليقظ سلامة . وأعاد الخفير المسروقات وغطى على الخبر مكثفيا بضرب ابن زوجته ضربا مبرحا . وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنه خسر جوهره الذى ميزه بين الناس ، وشعر بالحزى وخامره حزن عميق . وتمادى برهومة فى فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب. وقال له مرة :
— لا تضربنى .. إلى أحذرك ..

فانقض عليه ليؤدبه ولكنه تراجع إلى ركن وصاح به :
— سأعترف ، سأذهب إلى القسم وأعترف بكل شيء ، وأعترف أيضا بتسترك على ، إن ضربتنى مرة أخرى فسأعترف !
وذهل سلامة ، وسأله وهو يكتفم فيضان غضبه :
— أنت تهددنى بعد كل ما فعلت من أجلك ؟

— لا تضربنى وإلا اعترفت .

فصاح به :

— إذن أقلع عن فسادك .

فهتف وهو يفر من وجهه :

— أنا حر !

وقال سلامة لنفسه محسورا :

— إني أفقد كل يوم شيئا ثمينا لا يعوض .

ولاحظ كثيرون أن الخفير سلامة قد تغير ، وأن شائبة قد شابت استقامة قامته ، وهو من ناحيته شعر أن الناس يتغيرون أيضا ، ينظرون إليه باستهانة ما ، يجاملونه ولكن نظراتهم لا تخلو من سخرية ، لقد أوشكوا يوما مع إعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه ، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون .

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف .

وتأثر المأمور ، أمر بالقبض على برهومة ، وقال لسلامة :

— قدم استقالتك كيلا ترف ، إني أعطيك هذه الفرصة لإكراما

لتاريخك .

ولم يُهمل سلامة بلا عمل طويلا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال

خفيرا عنده .

وعُدَّ سلوكه مثالا طيبا عند أناس ، كما اعتبر نوعا من البله عند أناس آخرين .

الحكاية رقم « ٦٥ »

الشيخ لبيب وجه عتيق في حارتنا . تراءى لعيني معلما من معالم الحارة مثل التكية والقبو والسييل . كان يتخذ مجلسه قبيل مدخل القبو ، على فروة يجلس ، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدرة . ذو جلباب أبيض وطاقية خضراء ، مكحول العينين ضعيف البصر ، يطوق عنقه بمسبحة طويلة تستقر شرابتها في حجره .

تتقاطر النسوان على مجلسه ، يجلسن القرفصاء صامتات ، يرمين بمناديلهن وينتظرن كلمة تخرج من فمه . يغمغم ويتشاءب ثم يتمطى ، ينطق بكلمة مفردة مثل « تفرج » أو بمثل من الأمثال مثل « يا رايمين ربنا يكفيكم شر الجالين » فتفهم المرأة ما تفهم ، فيتהלل وجهها فرحاً أو يغمق كآبة ، ثم تدس المقسوم تحت طرف الفروة وتمضى .

عاش الرجل دهرا رزقه يجرى ، وكراماته تروى ، واسمه يتردد على شفاه ذوى القلوب الكسيرة وما أكثرهم في حارتنا .

ويطعن الشيخ لبيب في السن وتتغير الأحوال .
يندر تردد الزائرات عليه حتى ينقطع أو يكاد . ويتكاثر التلاميذ ممن لا يرعون له حرمة ، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة . ويهتف الشيخ :





تتقاطر النسوان على مجلسه

— ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله ، وصحته أيضا . ويتوعد الناس والزمان بعقاب
الآخرة ، ويتحسر على أيام الطيبين الذاهبين .

* * *

وأخيرا يسلم للزمن ، يتسول ، يمضى هاتفا ماذا يده  كل من عليها
فان  .

الحكاية رقم (٦٦)

وراء قضبان بدروم يلوح وجه صبي صغير . إذا رأى عابر سبيل أليف
المنظر هتف به :

— يا عم ..

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

— أريد أن أخرج .

— وماذا يمنعك ؟

— باب الحجرة مغلق .

— ألا يوجد أحد معك ؟

— كلا .

— أين أملك ؟

— أغلقت الباب وذهبت .

— وأبوك ؟

— سافر من زمان .

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم إليه مشجعاً ويذهب ، ويلوح وجه الصبي الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق إلى الناس والطريق .

الحكاية رقم (٦٧)

عبد السكري ابن أحد حملة القماقم والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخر العنقود فأدخله عم السكري الكتاب فأحرز التفوق من أول يوم . ونصحه سيدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردد الرجل ملياً بين إرساله إلى معلم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل ، ثم قرر في النهاية إلحاقه بالمدرسة . كان قراراً صعباً ، يعنى أن يعيش عبده عائلة عليه دهر طويلاً بدلاً من أن يعينه بهوميته ، ولكن تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر . وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عم السكري بزهو :

— أصبح لي ابن من موظفي الحكومة !

— ولكن عبده أصر على دخول المرحلة الثانوية . كان يمضي إلى المدرسة ببدلته القديمة المتهرئة وحذائه المرقع وطربوشه الزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلم في السياسة أيضاً . واستحق بعد ذلك أن يقبل بمدرسة المهندسخانة بالجمان ، وأن يختار بعد ذلك عضواً بالبعثة

بانجلترا . من يومها أطلق على عم السكرى « أبو المهندس » ، وذاع صيته في الحارة ، وضرب بذلك ابنه المثل . كان حلم عم السكرى في شبابه أن ينضم إلى عصابة فتوة أو ينتصر في خناقه ولكن الزمن يتغير ويسأى بالأعاجيب .

* * *

ويشغل عبده وظيفة مرموقة في الوزارة ، وبفضله قام أول مصباح غازى في حارتنا .

الحكاية رقم « ٦٨ »

من حكايات حارتنا التى لا تنسى حكاية عبدون اللاؤه .
الأب كان عاملا في البوظة والأم بياعة باذنجان مخلل . أما عبدون فيعمل صبيا في الفرن .

يجىء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل الشبان . يجب سلمى بنت ونس الكناس فيتزوج منها ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة .

نشيط ذوهمة عالية ، يعمل من طلعة الصبح حتى أول الليل ، لا يرتاح ولا يهد ، لا يتذمر ولا يشكو ، المعلم يقدره والزبائن يحبونه . يصلى العشاء في الزاوية ، يحضر الدرس ، يؤاخى الإمام ويسترشد بآرائه فيما يعن له من مشكلات . نزهته الوحيدة سماع الشاعر في المقهى ثم يرجع إلى

بيته متسوقا بطيخة أو خيارا أو سمكا مقليا .
وهو حلیم يتحمل نزوات المعلم ، وسخافات بعض الزبائن ،
وسخريات الأصدقاء بأدب وابتسام .
ما أعجبه في حارتنا ، كأنه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا
يتعامل مع أهل المعاصي والفتن من أهلها .

* * *

وذات يوم يظهر في الحارة بجلباب أبيض كالحليب وطاقية مزر كشة
ومركوب أحمر . وكلما التقى بصاحب عانقه أو بذى مقام قبل يده ، وقد
أضرب عن العمل ، ولم ينطق في ذلك اليوم إلا بجملة واحدة قال :
— اقتربت الساعة .

ويختفى ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه
صامتا . ويتعجب الناس ويتجمعون عند القبو . كيف صعد عبدون إلى
سطح القبو ؟ ، ماذا يفعل في مرتع الثعابين ووكر العفاريت ؟
ينادونه فلا يرد .

ثم يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم بعنف بأرض الحارة ..
وأقول لنفسى كلما تذكرت مصرع عبدون اللأله :
— أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرا من أن أعرف لماذا عبدون انتحر .

الحكاية رقم ٦٩ ،

نادرا ما يخرج إلى الحارة ، وإذ يخرج لحاجة يمضى مهرولا ، في عينيه حذر وتوجس ، في أذنيه صمم يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به ، لا يخرق القبو ، لا يزور المقابر . يعيش وحيدا في بدروم ، لم يتزوج ، لم يذعن لنزوة ، بقرض النقود بالربا يدعى أبو المكارم . ويلعنه الناس ولكنهم يقصدونه عند الضرورة .

وبلغ السبعين من العمر ، يتجمع لديه مال وفير ، ثم يكف عن العمل .

يتغير حاله ، تظهر عليه أعراض غريبة ، يرى من نافذة البدروم وهو متربع على الأرض مستقبلا الجدار بوجهه ، تمضى الساعات وهو لا يتحرك .

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتا حتى يسأله الشيخ :

— لماذا جاء أبو المكارم ؟

فيقول بلا مقدمات :

— حلمت حلما ..

فيسأله عنه فيقول :

— جاءني شخص في المنام وأمرني بأن أحرق مالي عن آخره !

فيتسم الإمام ويقول :

— ربنا يجعله خيرا .

— ولكنه يتكرر ليلة بعد أخرى !

— ما شكل ذلك الزائر ؟

— لا أدري ، جفناى ينطبقان فى حضرته .

فيسأله الإمام باهتمام :

— من نوره ؟

— أظن ذلك ..

— هل أعلن عن هويته ؟

— كلا .

فيصمت الإمام مليا ثم يقول :

— أتستطيع أن تتصدق بمالك على الفقراء ؟

فيرمقه برية ثم يذهب .

وذات يوم من أيام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتنبه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم . يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفا عاريا تماما والنار تشتعل فى ماله .

* * *

ويهم بعد ذلك على وجهه عاريا ، يلتقط الطعام من أكوام القمامة ، ثم يقبع فى ظلمة القبو . ويعثر عليه يوما ميتا تحت القبو فيدفن فى قبور الصدقة .

ويرى أحد الأعيان حلما ، يزوره سيدنا الخضر ويبلغه أن أبو المكارم ولى من أولياء الله وأنه — العين — مكلف بإقامة ضريح فوق قبره .

ويقیم الرجل الضریح ، وبمرور الزمن تتلاشى ذکریات أبو المکارم
وتبقى له الولاية .

وأسأل أئی :

— وكيف عرف الوجیه أن سیدنا الخضر هو الذی زاره فی المنام ؟ .
فیجینئی :

— لعله صارحه بذلك .

فأسأل :

— لو كان أبو المکارم ولیا حقا ألم یکن الأفضل أن یتصدق بماله علی
الفقراء ؟

— فی تلك الحال کنا نعهده محسنا لا ولیا !

ثم یستطرد بعد صمت :

— العبرة بالحلم ، لقد من الله علیه بحلم ، فهل تملك أنت حلما مثله ؟

الحکایة رقم « ٧٠ »

سحب الخریف تتراکم فتقطر قتامة علی حارتنا ، ها هم الباعة یترنمون
بخلوة الجوافة والبطاطا .

ویشير رجل نحو القبو ویهتف :

— یا أطفاف الله !

ینظرون فیرون رجلا خارجا من ظلمات القبو ، عاریا کما ولدته أمه ،

يتأوه ويترنخ ، تخذله ساقاه فيقع على الأرض ، ثم ينهض متشبثا بالجدران ، يتلفت حواله ويكي .

يهرع إليه أهل الخير ، يغطونه ، يضمّدون جرحا غائرا في رأسه ، يسألونه :

— ماذا حدث لك ؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه :

— من أنت ، ما اسمك ؟

يواصل أتينه بلا جواب فيسألونه :

— من أين أتيت ؟

لا جواب ولا أمل في جواب :

— أى مكان تقصد ؟

وبالتخمين وحده يعرف على نحو ما ما وقع له ، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق .

ويندمل الجرح ولكن العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش في الحارة لا يرحها ، أنسا إلى ما يلقى من ستر ورحمة ، تطعمه الصدقات ، ينام تحت القبو شتاء ، وعند سور التكية صيفا ، كلامه هذيان أو أصوات مبهمه ، يضحك ويكي لغير ما سبب ، ويظل مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف .

ولما كانت دواعي الإهمال والاحتقار هي نفس دواعي الإجلال والتعظيم في حارتنا فإن عبد الله — هكذا سمى باعتباره اسم من لا اسم له — يحتل مع الأيام مكانة سامية وتتخلق حوله حالة مبهمه من القداسة . يحبونه ،

(حكايات حارتنا)

بلا طفونه ، يتوددون إليه ، يحيطونه بأسرار ، يؤولون أصواته المبهمة ،
يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفية .

وأسمع ذات يوم رجلا يدافع عن « ولاية » عبد الله فيقول :
— أى فرد منا لا تتيسر له الحياة إلا بفضل معرفته للأصل الذى جاء منه
والهدف الذى يسعى إليه ، أما عبد الله فقد تيسرت له الحياة وحظى
ببركاتنا مع جهله بكل ذلك ، ومن ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله
وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقديس !

الحكاية رقم (٧١)

رجل غريب فى المقهى .
الغريب فى حارتنا يسترعى النظر ، فمن أين جاء الرجل ؟
جاء من ناحية القبو وهو ما يعنى أنه جاء من ناحية القرافة غير مبارك
الخطوات .

ويمضى الغريب إلى الزاوية فيسلم على الإمام وهو يقول :
— لا خاب من أسترشد .

فيقول له الإمام :

— نهديك بما نعلم والهداية من الله .

— إنما أريد معلومات عن يوسف المر ؟

— لماذا يا أخى ؟

- كلفنى بذلك أناس طيبون وأنت سيد العارفين .
فأدرك الإمام أن الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريد يوسف
أن يتزوج منها فقال :
— ولكنه متزوج !
— الدين يسر والحمد لله ..
— عائلة المّر قديمة فى الحارة وحرقتهم العطاراة .
— وعمره ؟
— فى الثلاثين ، يعمل فى دكان أبيه ، له ثلاثة أبناء .
— يغيب أحيانا عن الحارة أسبوعا أو أكثر ؟
— فيتسّم الإمام ويقول :
— يبدو أنك تعرف عنه الكثير ، ولكنه يغيب فى رحلات تجارية .
ثم يتساءل الإمام :
— من الذى كلفك بالتحرى ؟
فيقول معتذرا :
— لست فى حل من ذكره .
فيتضابق الإمام ويسأل بحفاء :
— وحضرتك من تكون ؟
— أدعى عبد الآخر المقاتول .
— أى مقاولات ؟
— كلا ، إنه لقيبى ، أما عملى فطحان غلال .
ويودعه ثم ينصرف .

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال ، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسره ، تحتدم مليا ثم تخف وتلاشى .

و ذات مساء يرى الغريب قادما من ناحية الميدان . يشق الحارة بلا توقف حتى يختفى في القبو ، ثم يميل إلى الممر الضيق بين السور العتيق وبين سور التكية ويمضى نحو القرافة .

ويعلم يوسف المرّ بخبره فينطلق في أثره حتى يغوص في ظلمة القبو . وتمضى ساعة فيقلق الأب ، ويذهب في أثر ابنه حاملا فانوسا لينير له الطريق مصحوبا ببعض عماله .

في القبو تترامى إليهم تراتيل الأوردة الأعجمية آتية من التكية ، وفي الساحة ، وعلى ضوء الفانوس ، يعثرون على يوسف المر مطروحا على الأرض وقد فارق الحياة .

ومع أن الطبيب الشرعى قرر فيما بعد أن الرجل مات بالسكتة إلا أن قراره لم يحترم لحظه واحدة في حارتنا .

يهزون رعوسهم ويتمتمون :

— الرجل الغريب !

ولكن من الغريب ؟ ، ولم قتل يوسف المر ؟

هنا تتبادل النظرات وتتاجى الهمسات وتنداح في الجو موجة من الأسرار الخارقة .

الحكاية رقم (٧٢)

وعكلة الصرمانى حكايته حكاية .
كان أبوه صاحب سيرك ، كان قويا وخلقا . يشتهر عكلة منذ صباه
بالرشاقة الخلافة فى الملعب .
يتوفى الأب فهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع . ينضم إلى عصابة
فتوة فيثبت صلابته وينال حظا من الثروة . وهو ذو رائحة خفية تجذب
أشواق النساء فيستوى على عرش الهوى فتنة للقلوب ، ويوغر صدور
الرجال حتى يقول له الفتوة :
— تأدب وإلا شوهت وجهك .
وكأن قلبه لا يعرف الحب الحقيقى ، يهيم بالمرأة حيناً ثم ينبذها ،
وتفوق غزواته كل خياله ، ويؤمن أناس بأنه يؤاخى الشياطين ويستعمل
السحر .
وفجأة يتزوج .
يتزوج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها ، ويستقر فى بيت الزوجية
استقرارا يشر بالدوام .
ويزهى فى الفتوة كما زهد فى السيرك من قبل ويفتح دكان حلوى ،
ويربح ثروة لا بأس بها .
وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الراجحة فيصفيها ويفتح مطعم لحمة رأس

وكبدة فينجح ويحقق ثروة أكبر من الأولى .

ويحتاجه حب المال ، يحل من نفسه محل النساء والسيرك والفتونة
فيتاجر في المخدرات والأراضي ، ويتاع بيتا ودوكارا ويتحلّى بالذهب .
ويقرر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة الكبيرة . يبنى
قصرا ويعيش عيشة الأكابر ، ويشترى عزة ، ثم لا يرى في حارتنا إلا عند
عقد الصفقات .

ويعشق الترحل ، وما أن يجربه حتى يخلب لبه ، فهو يوما بالإسكندرية
ويوما في أسوان ، ويزور البلاد العربية ، بل ويغامر برحلات في أوروبا .
عندما تعجبه بقعة من الأرض يفتن بها ويصرح بأنه لن يرحلها حتى
نهاية العمر ، ثم يعتادها ويروم غيرها ، ويعذبه عشق الأماكن كما عذبه
عشق النساء والمال وغيرها من قبل ، وبين كل رحلة وأخرى يرجع إلى
حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات .

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات فيتساءل :

— ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضا ؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة
إلا لضرورة .

ويتساءل عكلة :

— ترى أين جبال الواقع ؟

ثم يتساءل مرة أخرى :

— وأين سور الدنيا ؟ . وإذا أطل الإنسان منه فماذا يجد ؟

وتترامى عنه أخبار وأخبار .
يقال إنه أدمن الشراب ، يقال إنه يدمن المقامرة ، يقال إنه يرتكب
حماقات لا عد لها ولا حصر .
ويطول غيابه فى الخارج حتى يظن أنه لن يرجع .
واعتبره الأهل مفقودا .
وتمضى السنون .
و ذات صباح يعثر على جثة كهل فى الساحة أمام التكية شبه عار .
ويتعرف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماق . ينظرون إلى جثته
ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبدي والسر المنطوى .
كانت حياته أسطورة ، وموته لطمة .

الحكاية رقم « ٧٣ »

مصطفى الدهشورى ابن سقاء ولكنه من القلة الراسخة فى العلم فى
حارتنا ، وهو أحد المدرسين بمدرستنا وصديق لأبى .
يسأل أبى وهو يجالسه ذات مساء فى بيتنا :
— ما معنى الحياة ؟

يبتسم ، ولما يجده جادا فى سؤاله ومصرأ عليه يحدثه بما يعلم عن الأصل
والهدف ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، فيقول الدهشورى :
— إذن فأنت واثق من كل شئ ، من الحياة والموت وما بعد الموت ،

أعندك فكرة عما يحدث في القبر ؟
فيحدثه أبى عن التلقين وحساب الملكين ومستقر الروح وشفاعة
النجاة في الآخرة ، وعند ذلك يقول الدهشورى :
— إليك قصة الجسد البشرى ساعة بساعة من الوفاة حتى يستحيل
هيكلا عظيما ..

ويردد حديثا مرعبا ومقززا كأنه كابوس طويل ، فيهتف أبى محتجا :
— كفى ، ماذا تريد ؟
— أريد أن أصور لك حقيقة لا شك فيها .
فيسأله أبى ساخرا :
— ألا تؤمن بالله ؟
فيبتسم قائلا :
— بلى ، لا حيلة في ذلك .
ثم يواصل حديثه :

— ولكنه لا يتصل بى وأنا عاجز عن الاتصال به ، بيننا صمت قاتل
وأرى في الحالة شرا لا تفسر له ، وأرى في الطبيعة عجزا ونقصا ، ولا
أنفهم لذلك معنى ، فلم أشك في أنه — سبحانه — قرر أن يتركنا لأنفسنا ،
بلا اتصال وبلا عناية ..

وبصارحه أبى بأنه يجدف تجديفا خطيرا ، ولكن الدهشورى يستمر
قائلا :

— وإذن فالإيمان بالله يقتضى الإيمان بتجاهله لعالمنا ، كما يقتضى منها
الاعتماد الكلى على النفس وحدها .

وسأله أبى غاضبا :

— أنتخيل حال الناس لو آمنوا بفكرتك ؟ .

— لن يكونوا أسوأ مما هم بحال من الأحوال وثمة أمل بأن يكونوا أحسن .

ثم يشرح فكرته قائلا :

— لا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ أنها أمانة ملقاة علينا ، ولا مفر من حملها بكل جدية وإلا هلكنا ، وإذا أمكن أن يوجد أحيانا أمثال الخيام وأبى نواس فإنما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادين الكادحين الذين يقومون بحمل الأمانة عنهم ، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض ؟ ، وإذن فلا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو وإن وجدوا أنفسهم في عالم بلا إله ، لا مفر من الجدية ، ومن الإبداع ، ومن الأخلاق ، ومن القانون ، ومن العقاب ، وقد يستعينون أيضا بالعقاقير الطبية لمقاومة الضعف في السلوك والتفكير كما يستعينون بها في مقاومة الأمراض ، وسيفعلون ذلك بإصرار ، ولن تهن عزيمتهم بسبب أنهم يجدون أنفسهم في سفينة بلا مرشد في بحر بلا شطآن في زمن بلا بداية ولا نهاية ، ولن تختفى البطولة ولا النبيل ولا الاستشهاد .
ويتريث قليلا متساعجا مع غضب أبى وسخريته ثم يستطرد .

— وذات يوم سيحقق الإنسان نوعا من الكمال في نفسه ومجتمعه ، وعند ذاك ، وعند ذاك فقط ، ستسمح له شخصيته الجديدة بإدراك معنى الألوهية وتتجلى له حقيقتها الأبدية ..

ويتواصل النقاش حتى ينال منهما التعب ، ثم يتساءل مصطفى

(حكايات حارتنا)

الدهشورى باهتمام :

— كيف يمكن أن أنشر أفكارى فى حارتنا ؟

فيقول له أبى بحدة :

— أهل حارتنا غارقون فى هموم الحياة اليومية ، يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة .

— ولكنها مشكلات لا تحل الحل الأمثل إلا بأفكارى ؟

— أهل حارتنا لا يفهمون إلا لغة واحدة هى اللغة المشتقة من همومهم ، الخاوية لعذاباتهم ، المقدسة بأوراد الكائن المرجو عند الشدة الذى تريد أن تنزعه من قلوبهم .

ورغم حرص مصطفى الدهشورى تنسب إليه أفكار خارقة نسيء إلى سمعته بين الناس فيشير لفظا يفصل بسببه من وظيفته وتجهمه الحياة فى حارتنا .

الحكاية رقم « ٧٤ »

الأعور يتأهل لموعد غرامى فى الساحة أمام التكية . يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوطة ولكنه يسترسل فى الشرب حتى يفقد ذاته تماما .

يفادر الخمارة عقب منتصف الليل فيذوب فى الظلام ، ويزوب فى الحب ، ولا يدرى أين يتجه ، يرتطم فى الظلام بنوثو المجنون وهو يهيم على وجهه حيث إن جنونه غير مؤذ ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه ، ويقول له :

— أرشدنى إلى طريق التكية .

فيتحرك نوثو المجنون وهو يقول له :

— لا تترك ذراعى .. لماذا تريد التكية فى هذه الساعة من الليل ؟

— أتريد الحق ؟. إنى ذاهب للقاء حبيبتى .

— عظيم .. وأنا ذاهب أيضا للقاء حبيبتى .

— فى الساحة مثلى ؟

— بل فى التكية نفسها .

— ولكن الأسوار عالية :

— لا مستحيل فى الليل .

ويكاد الأعور أن يسقط من شدة الترنخ فيقول متشكيا :

- نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد ؟
— لم يمض على سيرنا إلا أسبوع واحد .
فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول :
— الزمن لا يرى في الظلام .
— والمحبوبة هل ترى في الظلام ؟
فيضحك السكران ويقول :
— إني لا أعتد على عيني للتعرف على المحبوبة .
— إذن فأنت مجنون !
— ولكن أين التكية ؟
— نحن لم نسر بشهادتك إلا أسبوعا واحدا .
— ولكنني أقطع الحارة نهارا في ربع ساعة .
— في الليل تطول المسافة ، ألا ترى أننا لا نتوقف عن السير ؟
ويدوخ الأعور ، وتعجز ساقاه عن حمله ، فيسقط على وجهه ،
ويروح في سبات عميق لا يستيقظ منه إلا مع أول شعاع للشمس . ينظر
فيما حوله بذهول فيجد نفسه أمام الخمارة لم يتعد عنها خطوة واحدة .

* * *

ويقول راوى هذه الحكاية — صبي الخمارة — أنه كان يقف عند
الباب ، يسمع حوار السكران والمجنون ، ويأرهما وهما يدوران حول
نفسيهما متوهمين أنهما يتقدمان .
ومن يومها والمثل يضرب بهذه الحكاية في حارتنا فيقال لمن يسترشد بمن
لا يرشد : « أنت سكران وهو مجنون فكيف تصلان إلى التكية ؟ » .



نحن نسیر منذ عام ولم نصل بعد ؟

الحكاية رقم « ٧٥ »

يدخل عمر المرجاني البوطة في غاية من الأبهة والأناقة .
جلبابه الأبيض يشع نورا ، عمامته المقلوطة تتوج رأسه ، مركوبه
الأحمر يتألق ، تحت إبطه خيزرانة رشيقة .

يحیی الحاضرين ببشر ويقول :

— تمتلئ قلوبكم بالهنا والأفراح .

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة في أعماقه ويتسم .

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتز طربا ويقول لمن حوله :

— صدقوني أن الحزن في هذه الدنيا ليس إلا وهما عابرا .

ويفرغ القرعة الثالثة في جوفه ويقول :

— ملعون من يلعن الدنيا ، لقمة حلوة ومرة حلوة وإيمان حلو ، ماذا

تريدون بعد ذلك ؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول :

— أنا سعيد يا جدعان ..

ويرقص بخفة وبهجة ..

وإذا بصوت خشن لم يحدد مصدره يهتف به :

— نريد الهدوء .

ولكنه يواصل الرقص ، ويأخذ في الغناء أيضا :
شوفوا العجب حيث فلاحه
فيعود الصوت الخشن قائلا :
— احترم نفسك واجلس ..
ولكنه يستمر في معانقة الفرحة ..
ويرتفع نبوت في الهواء ثم يهوى على رأسه ..
عند ذاك يتوقف عن الرقص ، يسكت عن الغناء ، تتصلب سحته
نافضة عنها لآلئ السعادة .. ثم يتهاوى على الأرض ..

الحكاية رقم « ٧٦ »

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إن الحكومة ستهدم التكية ضمن
مشروع للمرافق العامة . في لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين
والوكالات والغرز والبوظة والخرابات في حارتنا .
— حارتنا ميمونة ببركة التكية .
— الخضرة والأزهار لا ترى إلا في التكية .
— والأغنيات الإلهية أين تسمع إلا في التكية .
— وما المكان الذى لم يضم أذى لإنسان إلا التكية .
وبالبحث والتحري تكشف حقيقة غريبة وهى أن صاحب المشروع
هو المهندس عبده السكرى ابن حارتنا !

ويقول عبده :

— التكية تعترض مجرى الحارة كالسد وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال .

فيقولون له :

— وهل علمت أننا متضايقون من ذلك ؟ . وألا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال ؟

— لا تنسوا أن القرافة ستنقل عما قريب إلى صحراء الخفير وسيحل محلها عمران شامل .

— طول عمرنا نسمع أن القرافة ستنقل وها هي باقية لا تتحرك ، فكيف هان عليك أن تقترح إزالة التكية المباركة ؟

واشتد النقاش ، وحمل الانفعال ، وكتبت العرائض ، وحل بمارتنا توتر وحزن لم تعرفهما من قبل .

ويرتفع صوت معتدل يقول :

— لا وجه للعجلة ، فلننتظر حتى يتقرر بصفة نهائية نقل القرافة

ويشرع في ذلك بالفعل ، عند ذاك يحق لنا أن نناقش مسألة هدم التكية .

وغلب هذا الرأي فتراجعت الوزارة وتأجل المشروع .

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا .

وأما القلة المعتدلة فهي تقول :

— فلتبق التكية ما بقيت القرافة .

الحكاية رقم « ٧٧ »

أنور جلال جالس على سلم السبيل الأثرى وهو يضحك عاليا. أنظر إليه فيخطر لى أنه سكران أو مسطول فأمضى نحوه وأجلس إلى جانبه ثم أسأله :

— ماذا يضحكك ؟

فيجيبني وهو لا يكف عن الضحك :

— تذكرت أنني طالب بين طلبة متنافسين ، في مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة ، في حارة وسط حارات متعادية ، وأنى كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة ، في كرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لى عليها ، والمجموعة ضائعة في سديم هائل ، والسديم تائه في كون لا نهائى ، وأن الحياة التى أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ، وأن على أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهمهم بالأحزان والأفراح ، لذلك لا أتمالك نفسى من الضحك .

فأضحك معه طويلا حتى يحدجنى بنظرة ساخرة ويسألنى :

— هل تضمن أن تشرق الشمس غدا ؟

فأقول بثقة :

— أستطيع أن أراهن على ذلك .

فيقول وهو يضحك :

— طوبى للحمقى فهم السعداء .

الحكاية رقم « ٧٨ »

عرفت الشيخ عمر فكرى فى بيتنا وهو فى زيارة لأبى . هو كاتب محام متقاعد ، فتح عقب تقاعده مكتباً للأعمال لمعاونة أهل حارتنا فى شئون الحياة بعد أن توفقت أسباب الاتصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة . ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة ، ويقدم خدمات متنوعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجارية وشئون الزواج والطلاق .

سمعتة وهو يقول لأبى بكل ثقة واعتزاز :

— من خبرنى الطويلة أستطيع أن أقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من

ميادين الحياة !

تحركت فى أعماق رغبة قديمة كامنة فسألتة :

— أتستطيع أن تقدم لى خدمة ؟

فنظر إلى باسما وسألنى :

— ماذا تريد يا بنى ؟

— أريد رؤية شيخ التكية الأكبر !

فضحك الشيخ عمر عالياً وشاركه أبى ثم قال :

— إن الخدمات التى أقدمها جديده وتتعلق بجوهر الحياة العملية !

— ولكنك قلت إنك تقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين

الحياة .

— ولكن التكية خارج أسوار الحياة ؟

— هي ليست كذلك في الواقع .

وقال لى أبى :

— أسمع بعض ما تحفظ من أشعارها .

فرددت بسرور :

— بلبلى خون دلى خورد و كلى حاصل كرد .

فقال الشيخ عمر فكري مخاطبا أبى :

— ما أكثر الذين يرددون هذه الأشعار بلا فهم « ثم ناظرا نحوى »

أتفهم معنى كلمة واحدة مما رددت ؟

فهزئت رأسى نفيا فقال :

— إنهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكن حارتنا مجنونة بهم .

فقلت له :

— إنك قادر على كل شيء .

فتمتم أبى .

— أستغفر الله العظيم .

وسألنى الشيخ :

— وما أهمية رؤية شيخ الدراويش لك ؟

— لأننا أكد من تجربة مرت بى فى طفولتى .

وقص عليه أبى قصتى القديعة فضحك الشيخ عمر وقال :

— أعترف لكما بأننى رغبت ذات يوم فى رؤية الشيخ الأكبر .

— حقا ؟!

— قلت لنفسى إن الحارة كلها تردد ذكره رغم أنه لا يكاد يزعم أحد أنه رآه وولعت بفكرة رؤيته ولع الأطفال ، ماذا يحول بينى وبين ذلك ؟ ، ومضيت إلى التكية ، طلبت مقابلة أى مسئول بها ولكنهم لاقونى من وراء السور بتجهم وقلق ، ولم يبدو أى استعداد للتفاهم ، تكلمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة ، حتى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب ، ورجعت معترفا بحماقتى ، يائسا من تحقيق فكرى بالاتصال المباشر ، مقتنعا فى الوقت نفسه بأن اقتحام التكية بالطريق المشروع متعذر أو مستحيل ، وأن اقتحامها بالتسلل خرق للقانون لا شك فيه لا يتوقع من رجل يقوم عمله فى الحياة على احترام القانون .

— هكذا عدلت عن رغبتك ؟

— لم أعدل عنها كما ظننت ، ولكننى جربت وسيلة ثانية طفت بالطاعنين فى السن من أهل حارتنا ممن عرفوا بالتقوى فادعى بعضهم أنهم رأوه ولكن لم يتفق اثنان منهم على وصف محدد له ، اختلفوا الحد التناقض ، وهذا يعنى فى نظرى أن أحدا منهم لم يره .

فقلت بحماس :

— ولكننى رأيته .

— انكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون .

— وما وجه الاستحالة فى رؤيته ، ألا يخطر له أحيانا أن يتمشى فى

الحديقة مثلا ؟

— ومن أين تعلم أن الذى تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشا من

الدراويش ؟

— وهكذا نفضت يدك من المسألة ؟

— أبدا ، كنت مجنوننا أكثر مما تتصور ، ذهبت إلى ديوان الأوقاف متحديا ، حصلت على معلومات لا بأس بها عن أوقاف التكية وعن فرقهم الصوفية ، عن الدراويش المخصص لتسلم الربيع ، ولكن لم أعر على كلمة واحدة تخص الشيخ الأكبر فضلا عن كراماته التي تؤمن بها حارتنا .

فغصصت بالحيلة ورمقته بحق ثم قلت :

— توجد وسائل أخرى ولا شك ؟

فقال باسما :

— يوجد العقل ، هو الذى خلصنى من رغبتى المحمومة ، قال لى إننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر !

فسأله أبى :

— هل يصلح هذا دليلا على عدم وجوده ؟

— إنه لا يقول ذلك ، إنه يقرر حقيقة نعرفها جميعا وهى أننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر .

فقلت :

— ولكن توجد وسيلة ولا شك للثبوت من وجوده ومن رؤيته ؟

— لن يتأتى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد ، وإنى كما تعلم لا أحيد عن القانون أبدا .

فضحك أبى وقال :

— اعترف أنه توجد خدمة واحدة على الأقل لا تستطيع أن تؤديها

يا شيخ عمر .

فجاراه في ضحكته قائلاً :

— ليكن ، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر ؟ ، ألم تكن رغبة

مضحكة ؟!

فسأله بجرارة :

— لم يغلقون في وجوهنا الأبواب ؟

— التكية شيدت في الأصل في خلاء لأنهم قوم ينشدون العزلة والبعد
عن الدنيا والناس ، ولكن بمرور الزمن امتد العمران إليهم وأحاط بهم
الأحياء والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة .

وابتسم ابتسامة فاترة وقال :

— لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة وهي وإن تكن غير مجدية في
تحقيق رغبتك إلا أنها قاطعة في أنه لا يمكن تحقيق الرغبة إلا بوسيلة غير
مشروعة خارقة للقانون .

* * *

تلك ذكرى لا تنسى .

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون ، ولكنني في
الوقت نفسه لا أستطيع تصور تكية بلاشيخ أكبر .

وبمضى الأيام لم أعد أرى التكية إلا في موسم زيارة المقابر ، فألقى
عليها نظرة باسمة ، وأستقبل ذكرى أو أكثر ، وأحاول أن أتذكر صورة
الشيخ أو من توهمت ذات مرة أنه الشيخ ، ثم أمضى نحو المعمر الضيق
الموصل إلى القرافة .

رقم الإيداع ٢٥٦٦

الترقيم الدولي X — ٢٣٢ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحانه

Bibliotheca Alexandrina



0348207

الضمن

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه